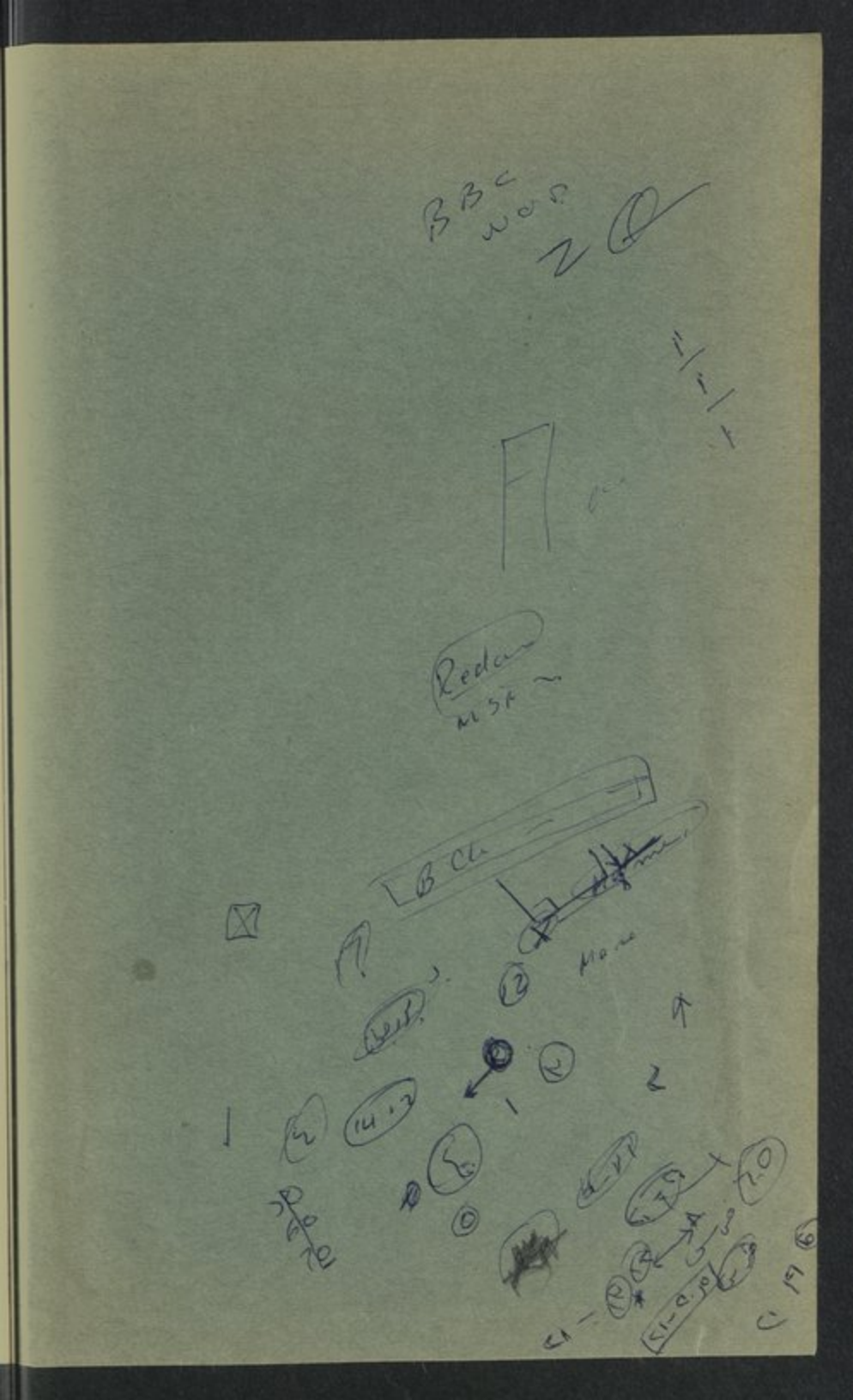
BBC
WOR
NO
Redcar
LB Cl

AS
89278
R949 at
C.1
cat. Mar. 16, 54

المجموعة الاولى

آراء الرصافي

في السياسة والدين والاجتماع

89278
R949 at
C.1

بقلم

معروف الرصافي

جمع وترتيب

سعيد البدري

مطبعة المعارف - بغداد

الفهرست

الموضوع	الصحيفة
رسالة الرصافي الى الاستاذ البدري	..
كلمة	..
المقدمة	..
الزعماء في العراق	٩
الاقطاعية في العراق	١٦
دور الاقطاع	٢٢
الى المغرورين باستقلالهم	٢٥
التمويه والخداع	٣٢
دائرة التجسس البريطاني	٣٣
الطفل الهرم	٣٧
طفلنا المولود	٤١
الوحدة الاسلامية	٤٦
ما شيعة وما سنة	٤٧
إهداء الهدى	٥٠
بناء المسجد	٥٨
اقتران الدعوة بالسيف	٦٠
لا إله إلا الله	٦٢
غاية محمد (ص)	٦٤
حبه قريش	٧٥
حزم محمد	٨١

الاستاذ سعيد البدري

صاحب جريدة المبدأ وجامع هذا الكتاب

صورة الكتاب المؤرخ ٢٥ آذار ١٩٤١ الذي أرسله شاعر العرب الكبير المرحوم الرصافي الى صديقه الاستاذ سعيد البدري جامع هذه الرسالة والذي يثبت فيه مؤلفاته الخطية القيمة

---

٢٥ آذار ١٩٤١

حضرة الفاضل السيد سعيد البدري المحترم

بدأنا بالتحيـــة والسلام وندعو بالسعادة في الختام

هذا ما جرى به القلم عفواً ، عندما شرعت بالكتاب ، فليس هو بشعر على رأي من يشترطون القصد ، في قول الشعر ، وان كان الذي حملهم على هذا الشرط اخراج الآيات القرآنية المنزلة من تعريف الشعر الذي قالوا في تعريفه أنه كلام موزون ذو قافية .

على أن هذا البيت الذي جاء عفواً ليس فيه ما يدعو إلى القول بأنه شعر سوى الوزن . وله في الشعر العربي نظائر لا تعد ولا تحصى خصوصاً في الشعر القديم . والذي أراه ان حقيقة الشعر قائمة بالوزن لأنه بالوزن وحده يصلح للغناء . والشعر لم يكن الا ليتغنى به فهو وليد الغناء وربيبه ولولا الغناء لم يكن للوزن في الكلام معنى معقول .

سبحان الله ! ان هذا الكلام كله لم يكن مقصوداً عندما أخذت القلم للكتابة فالنتكلم بما هو مقصود : جوابك لكتابك الاخير أقول

ان الجزء الخامس من الرسالة العراقيـــة يحتوى على مقالين احدهما (تاسوعاء شعبان) الذى كتبناه قبل براحك الفلوجة فاطلعت أنت عليه . فاني كتبته أولا في رسالة (خواطر) ثم رأيته يناسب الرسالة العراقية اكثر فألحقته بها . والثاني هو مقال (المسلمون فى هذا العصر) وهذا على (ما أظن) كتبناه بعد براحك الفلوجة فلم تطلع عليه وهو مقال اطول من تاسوعاء وفيه مباحث شتى لم يتطرق اليها علماء الدين من قبل بل لم ينتبهوا اليها البتة وقد أثبت فيه ان لا ملكية فى الاسلام . فان كنت قد اطلعت عليه واستنسخته كما استنسخت تاسوعاء فلا حاجة الى ارساله اليك .

وقد كتبت مقالاً آخر مسهباً بعنوان (هل لمحمد معجزة سوى القرآن) وبحثت فيه عن الشخصيات المرية فى الاسلام والحقته بكتاب (الشخصية المحمدية) فصار به الكتاب ثلاثة واربعين جزءاً .

هذا والسلام عليك من أخيك فى الله

المخلص

معروف الرصافى

كلمة

بقلم الاستاذ سعيد البرزي

في اواخر صيف ٩٣٩ كان لي شرف التعرف على « الرصافي » الشاعر العربي العبقري العظيم . وقد لازمته ملازمة التلميذ لاستاذه ، والصديق لصديقه ، وبعد ان اطمئن رحمه الله الى اخلاصي له ، ووثق من احترامي واكباري لشخصيته ، تلطف فاطلعني على كثير من نتاج افكاره ، وآرائه ، ومبادئه ، ومعتقداته ، نثراً وشعراً ، وقد دونها في مخطوطات قيمة كتبها بقلمه وبخطه ، وسمح لي بمطالعتها ، ثم اجازني فاستنسخت منها ما رغبت في استنساخه ، واباح لي نشر ما احبذ نشره ، فنشرت مقطوعات شعرية ، ونتفاً ادبية في صحف بغداد والبصرة وعلقت عليها ، كما كتبت صورة قلمية عن حياة هذا الشاعر الخالد وهو في دور شيخوخته يوم كان في معتزله في « الفلوجة » كانت مثار اعجاب القراء ، والمعجبين بنبوغ هذا الشاعر الكبير .

ويوم اصدرت ، وصديقي الكريم الشاعر المعروف الاستاذ نعمان ماهر في الربيع الماضي سفرنا الصغير « الرصافي في اعوامه الاخيرة » الذي بحثت في القسم الثاني منه عن مؤلفات « الرصافي » سيما عن كتابيه « الشخصية المحمدية » و « والرسالة العراقية » ووعدت القراء الكرام بنشر فصول من هذين الكتابين النفيسين إنهالت عليّ الكتب والرسائل من انحاء العراق وبعض البلاد العربية ، وكلها تلح في الطلب ، وتلحف في الرجاء ،

للمسارعة فى نشر هـــذه الفصول .

وبراً بانجاز العهد الذى قطعته : فاني اضع بين ايدى قراء الأمـــة العربية الـكريمة المجموعة الاولى من آراء المرحوم الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع ، وهي فصول اخترتها من بطون الـكتابين المذكورين، بعد ان عدت الى دراستها دراسة عميقة ودقيقة فأثبت هذه المواضيع التي عرضتها على « شخصية لها مكانتها العلمية والقانونية » فحذفت بعض عبارات وجمل لا يجوز نشرها فى الوقت الحاضر .

ليس لي فضل في اخراج هذه الرسالة الرصافية الى عالم النشر سوى اختيارها وترتيبها وجمعها ، ولا أرمي من وراء نشرها إلا خدمة العلم والأدب .

وسيجدني اصدقاء الرصافى ، والمعجبون بنثره وبشعره ، غير ضنين ولا حريص ، ولا محتـكر لآثار الرصافى العلمية ، التي اصبحت بعد وفاته ملـكاً للامة التي انجبته ، وسأعمد الى نشر كل ما يمكن نشره من آثاره في الشعر والنثر ، والله الموفق ؟

المقدّمة

بقلم الشاعر المعروف الاستاذ فائع الراوي

هـذه فصول تنطوي على افكار نيره وآراء حرة دبجتها يراعة الرصافي الشاعر الحر المعروف بالجرأة والصراحة والاقدام ، عالج فيها اوضاعنا السياسية والدينية والاجتماعية بلهجة صادقة وحجة قوية ، وللرصافي في ميدان السياسة والدين والاجتماع صولات وجولات تشهد له بالتفوق فمن ذلك قوله :

أنا بالسياسة والحكومة اعرف ... أألام في تفنيدها واعنف
سأقول فيها ما أقول ولم أخف ... من ان يقولوا شاعر متطرف
هذه حكومتنا وكل شموخها ... كذب وكل صنيعها متكلف
غشت مظاهرها وموه وجهها ... فجميع ما فيها بهارج زيف
وجهان فيها باطن متستر ... للاجنبي وظاهر متكشف
والباطن المستور فيه تحكم ... والظاهر المكشوف فيه تصلف
علم ودستور ومجلس امة ... كل عن المعنى الصحيح محرف
اسماء ليس لنا سوى الفاظها ... اما معانيها فليست تعرف

الى آخر هذه القصيدة العصماء التي تستثير الشعور وتهز العواطف .

ومن كان له ما للرصافي من الجرأة والصراحة والاقدام فهو لا يحابي ولا يداهن ولا يتزلف ، يجهر بالحق ويكره المخاتلة والزيغ :

احب صراحتي قولاً وفعلاً ... واكره ان اميل الى الرياء

ان الرصافي حر الضمير قوي الشكيمة صلب العريكة لا يتزعزع أمام العواصف الهوجاء ، حاربه رجال السياسة فحالوا دون انتشار الكثير من افكاره وآرائه لئلا تحطم اصنامهم وتزلزل ابراجهم ، وحسده بعض رجال الدين على ما آتاه الله من عقل ودراية فتعرضوا له بالسوء وشددوا عليه النكير ورموه بالكفر والزندقة والالحاد ولو ملكوا ان يقارعوه الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان لهان الامر ولكنهم تسلحوا لمقارعته بالشتائم الرخيصة والسباب البذيء بينما كان سلاحه العلم الصحيح والمنطق السليم وشتان بين السلاحين :

وجردت شعري من ثياب ريائه فلم اكسه الا معانيه الغرا
اضمنه معنى الحقيقة عارياً فيحسبه جهالها منطقاً هجرا
ويحمله الغاوي على غير وجهه فيوسعني شتماً وينظرني شزرا
رويدك ان الكفر ما أنت قائل وان صريح العرف ماخلته نكرا

هل الكفر الا ان ترى الحق ظاهراً
فتضرب للانظار من دونه سترا ؟
اذا كان في عرى الجسوم قباحة
فأحسن شيء في الحقيقة ان تعرى

لم ارد في هذه الكلمة ان ادخل في تحليل ما في هذه الفصول من آراء وافكار فتحليل ذلك اتركه للقراء الكرام انفسهم اما انا فأود ان اوجه الانظار بهذا الى أن ما كتبه الرصافي وما قاله في حياته لم يجد صدوراً رحبة من رجال السياسة والدين تتسع للمناقشة العلمية والجدل المنطقي ولهذا فان الكثير منهم لا يرتاحون لآرائه وافكاره ويعدونها خروجاً

منه على المألوف ولو انهم امعنوا النظر فيها وناقشوها بروية وتعقل لغيروا رأيهم فيه ووضعوه من نفوسهم موضع الاحترام والتبجيل غير انهم ويا للاسف كانوا منقادين للعاطفة مسيرين حسب الاهواء وهذ لعمر الحق هو علة الانحطاط وآفة التردى .

ولا اود ان اختم هذه الكلمة قبل ان انوه بجهود الاستاذ السيد سعيد البدرى الذى خدم العلم والأدب وأسدى للعراقيين خاصة وللعرب عامة خدمة جليلة باخراج هذه المجموعة التي هي من أهم آثار استاذه الرصافى .

واذا اتيح لك ان تقرأ ما فيها فستعطيك صورة واضحة جلية عن وجوه الاصلاح السياسي والديني والاجتماعي وتضع يدك على الداء وترسم لك طريقة العلاج وانت بعد ذلك حر ان تتصرف كما يحلو لك . ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

بغداد : خاشع الراوى

الزعماء في العراق

اذا تصورنا الزعامة بأسمى معانيها ، جزمنا بأنه لا بد للزعيم من صفات تؤهله للزعامة، منها كونه السيد المحترم، والآمر المطاع ، والناصح المخلص ، والمرشد الخبير الهادي الى الطريق الارشد . والمتفادي الذي ينسلخ من نفسه في مصلحة قومه ، والصادق الذي ترتدف اقواله الاعمال، والهمام المقدام، الذي يقتحم في مصلحة قومه المهالك والاهوال

هذا ما يشترط في الزعيم ، واما ما يشترط في المزعوم عليهم فهو ان تجمعهم تحت لوائه فكرة سامية ، وغاية عالية ، تكون اما من وحيه اليهم او من وحي غيره اليه ثم اليهم ، ولا فرق بين ان تكون تلك الفكرة دينية او وطنية او قومية ، او نحو ذلك من مثل اعلى وغاية قصوى ، فهم في جميع امورهم يتجهون نحو تلك الفكرة السامية ، وينضوون اليها ، ويجتمعون تحت لوائها حتى تتكون فيهم وحدة لا تفلها الارزاء ، ولا تفرقها الاهواء ، والا فلا معنى للزعامة على اخلاط من الناس عباديد لا تجمعهم جامعة ، ولا تقودهم فكرة ، ولا توحدهم غاية، واذا قيض انه لمثل هؤلاء زعيماً ، فأول ما يجب ان يسعى اليه فيهم هو جمع كلمتهم ، وتوحيد قلوبهم ، وتوجيههم الى غاية معلومة ، وخطة مرسومة ، وعندئذ تتم له الزعامة عليهم فينهض بهم الى ما يريد .

وقد شهد التاريخ ، وايدته التجارب ، وصدقته البراهين بأنه ليس من الممكن عادة ان تتسع امة من الامم ـ مهما كبرت ـ لا كثر من زعيم واحد في جيل واحد ، والا فلو اتسعت لأكثر من ذلك لما كان

للزعامة قدر اعلى من قدر الوزارة ونحوها من مناصب الدولة التي ينالها الناس بالتفويض .

ليست الزعامة ثوباً يلبسه الناس من ارادوا ، ولا تاجاً يضعونه على رأس من احبوا ، وانما هي مما تأتي به الاقدار ، وتتمخض به الاجيال ، وتنجبه الاصلاب والارحام ، اي هي كالنبوة من الجبلات التي لا تصدر إلا من طراز الله .

ليست الزعامة بمعناها المتعارف اليوم من الامور الاعتيادية بل هي من خوارق العادة ، في فطر الناس وسجاياهم ، ولا بد لظهورها من اسباب غير اعتيادية ايضاً ، فقد تكون الصفات اللازمة لها كامنة في بعض ابناء الامة ، فلا تظهر إلا بحوادث تفوق المعتاد من صروف الدهر ونوازل الايام كالحوادث التي ظهرت بها زعامة مصطفى كمال في الامة التركية وزعامة هتلر في الامة الالمانية .

* * *

بعد هذه المقدمة الوجيزة اريد ان اقول كلمة متحيرة متعجبة لكثرة ما انجبه العراق في عهده الاخير من الزعماء ، ان في العراق اليوم اخلاطاً من الناس مختلفي العناصر والاجناس ، فيهم العربي المستنبط ، والنبطي المستعرب ، وفيهم المضرب ، والمذرع ، وفيهم المقرف ، والهجين ، وقلما تجد فيهم الهجان ، وهذ التواشج في الانساب غير مستحدث بل هو قديم حصل عقب النهضة الاسلامية ايام الفتوح التي اختلط فيها العرب بغيرهم من الامم ، والى هذا اشار المعري في لزومياته إذ قال :

قد امتزج العالم الآدمي فغورية مع نجدية

وام الغزاري تركية وعرس النجرى كردية
وزوج الكلابية الكاسكي وعرس الكلابي صفدية

واستمر هذا الامتزاج والاختلاط متزايداً الى يومنا هذا ، وعم هذا الامتزاج الروم والفرس والترك والكرد وغيرهم من الناس الذين بلغهم الاسلام وفتح بلادهم ، حتى اشتبكت اوشاج العروق والدماء بعضها ببعض ، وزادوا على اشتباكهم في الدماء اشتباكهم وتواشجهم في الالفة والصحبة والمعاشرة لأن الاسلام جمع بينهم وجعلهم امة واحدة فترى العربي يقيم بين الفرس او الروم او غيرهم فيخالطهم ويتزوج منهم حتى يتعلم شيئاً من رطانتهم ويتخلق بأخلاقهم ويتعود عاداتهم ويولد له فيهم اولاد لا ينشؤن إلا نشأتهم ، ولا يتكلمون إلا بلسانهم لأن الولد في نشأته تابع لأمه . وكذلك القول في الفارسي او الرومي الذي يقيم بين العرب فيخالطهم ويتزوج منهم فيولد له منهم اولاد يكونون اقحاحاً والى هذا اشار المعري في لزومياته بقوله :

تخالف النجر فالرومي منطقه كمنطق العرب والطائي مرطان

وقلت انا في قصيدة مضحكات الدهر :

ويا رب تركي تعرب وادعى على عربي هجنة المتترك

يقال ان اهل العراق اليوم لا يزيدون على خمسة ملايين ، ومهما كان عددهم ، فهم ممسوخون ، في السجايا والاخلاق ، إذا نظرت الى سوادهم قلت متعجباً ما هذه الاوباش ؟ . واذا نظرت في اخلاقهم قلت متحيراً ما هذه الاحناش ؟ . بعدت شقة ما بين الباطن منهم والظاهر تراهم مبتسمين وهم محتربون ، ومقتربين وهم مبتعدون كما قال الله تعالى :

« تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » . يزعمون انهم يدينون بالاسلام ، وليس عندهم منه غير اسمه ، وتراهم مع ذلك يرفلون منه ، فى اثواب الرياء ، ايمانهم متتابعة ، يسردونها لك سرداً ، وهم فيها كاذبون ، وكأن الكذب عندهم مباح ، فهم لا يصدقونك حتى فى رد السلام .

وكيف يدينون بالاسلام وانت تراهم من عاداتهم المنكرة وتقاليدهم المستهجنة يتخبطون فى حمأة نتنة من همجيتهم التى اعادوا بها الجاهلية الجهلاء على اشنع وجه وافظعه ، والحكومة من ورائهم تؤيدهم فى ذلك بقانون العشائر ، ذلك القانون الذي ليس هو كفراً فى الاسلام فقط بل هو كفر واشنع من الكفر فى جميع الاديان ، وليت هذا القانون خص بأهل السواد من العشائر الذين يسكنون الارياف يحرثون الارض ويزرعون كما تقتضيه تسميته بقانون العشائر ، ولكننا نراه إذا شاء الهوى جرى بتنفيذ احكامه على اهل المدن ايضاً كما وقع ذلك غير مرة ،

* * *

لا استطيع فى هذه الكلمة الموجزة ان اصف لك ما فى العراق من الهمجية المؤيدة بهذا القانون ، أني اقول لك باختصار ان المرأة عند هؤلاء لا ترث بل هي نفسها مال موروث فهي عندهم كالبقرة والشاة وغير ذلك من دوابهم تباع وتشترى وتجري فيها المساومة فتعطى فى الديات ، وتمنح متعة فى الجنايات وبالجملة هي مال متقوم حتى ان من كان منهم ذا بنات عد نفسه من الاغنياء ، واذا كانت المرأة ذات زوج فساوم وليها رجل آخر بأكثر مما دفع زوجها ارغم زوجها على الطلاق وربما اذا كان زوجها غائباً زوّجها وليها آخر من دون طلاق طمعاً فى اخذ

الصداق كما شهدت ذلك فى لواء العمارة وفى لوائي ديالى والرمادي .

* * *

واعلم ان دعاوى العشائر لا يعود المتخاصمون فيها الى المحاكم المدنية ، بل يكون الفصل فيهـا عند رجال الادارة كالمتصرف والقائممقام ومدير الناحية ، وتؤلف لها محكمة من عدة محكمين ينتخب بعضهم المدعي وبعضهم المدعى عليه ويرأس هذه المحكمة المتصرف والقائممقام الذي اعطته الحكومة سلطة عشائرية لفصل دعاويهم ، ويكون الحكم فيها بمقتضى أحكام قانون العشائر .

واليك بعض الاحكام الصادرة من قبل هذه المحاكم نذكرها لك على سبيل المثال لتعلم فى اي جاهلية جهلاء يهيم هؤلاء الاهاج .

كنت فى سنة ١٩٢٨ قد زرت صديقي السيد خيري الهنداوي وكان إذ ذاك قائممقاماً فى علي الغربي (بلدة على شاطىء دجلة دون العمارة) وبينما كنت جالساً عنده فى مكتبه الرسمي إذ جيء اليه برجلين من عرب عشائر العمارة كان احدهما قد صيّح اخت الآخر ، والتصييح فى عرفهم هو ان يتعرض الرجل لامرأة بشيء من المراودة يقولون فى كلامهم «صيّح فلان بنت فلان اذا راودها عن نفسها ، فأخذ السيد خيرى يكلمها بما فهمت منه ان الحكم فى قضيتها هو اعطاء المدعى عليه اي الجاني المراود اخته الى المدعى عليه الذى اخته مصيّحة اى مراودة يتزوجها بلا مهر ولا صداق ويأخذها كأنها أمه يتسراها او يستخدمها كما يشاء .

فأخذني العجب من هذا الحكم الجاهلي الجائر وقلت للسيد خيري ما ذنب هذه المسكينة اخت الجاني تعطى على هذا الوجه من اجل جناية

جناها اخوها ، فأجابني السيد خيري بأن هذا هو حكم قانون العشائر الذي يقضي بينهم بما لهم من عرف وعادة ، فقلت ان هذا حكم لم تقبله العرب وهم فى الجاهلية فكيف وهم فى الاسلام ، قال وازيدك علماً بأن التي تعطى كهذه فى ألجنايات لا تكون لها اى حرمة عند اخذها بل تعيش محتقرة مهانة تمتهن فى المهن كأمة من الاماء ، اللهم إلا اذا ولدت ولداً فان خطبها عندئذ يهون بعض الشيء .

وفى سنة ١٩٣٢ كنت فى العمارة وكان المتصرف فيها إذ ذاك السيد عارف قفطان العاني ، وبينما كنت جالساً عنده ذات يوم فى مكتبه الرسمي ايضاً إذ جيء اليه بامرأة ورجلين من عرب لواء العمارة ، فانهار المتصرف على احد الرجلين لعناً وشتماً ثم التفت الي وقد رآني متعجباً منه وقال انظر الى هذا الملعون وهو اخو المرأة وذلك الآخر زوجها . اتدري ما ذا فعل اخوها قلت لا ، فقال ان زوجها هذا ذهب الى البصرة قبل شهرين ليفتش له عن شغل هناك ، وبينما هو فى البصرة إذ جاء رجل الى هذا الملعون اخيها فطلب منه ان يزوجه إياها فوافقه على ذلك طمعاً فى المهر. ولما بلغ ذلك زوجها فى البصرة جاء مشتكياً ثم التفت المتصرف الى اخيها وقال يا ملعون كيف تزوجها وهي ذات زوج موجود فى البصرة ، فما كان من اخيها إلا ان سمعته يقول : وهذه كلماته بعينها « والله يا بيج ما يدزلها خرجية » اي ان زوجها لم يرسل اليها نفقة ، وفى النتيجة كان الحكم باعادة المرأة الى زوجها الاول واستعادة المهر من اخيها الى الزوج الثاني الذى هو غير شرعي . فكان هذا الحكم بمثابة رحمة نزلت من السماء على الزوج الثاني لأنه استرد المال الذى اعطاه مهراً وقضى وطره

فى المرأة مجاناً مدة من الزمن .

اكتفي بهذا الذى ذكرته على سبيل الاستطراد . وسأعود اليه عند الكلام على حالتنا الاجتماعية ، وانما جرنا اليه هنا ما قلناه آنفاً من انهم يزعمون انهم يدينون بالاسلام ، فأنشدتك الله ايها القارى اين هذا من دين الاسلام ؟ واين الاسلام منه ؟ وتالله ان الرواة لم تحدثنا بمثل هذا فى عصر الجاهلية الجهلاء ، او ما تستحى الحكومة العراقية من قولها فى دستورها ان دين الدولة هو دين الاسلام وهي مع ذلك تنفذ احكام هذا القانون الذى ينقض الدستور كما تنقض الصاعقة البناء .

الرصافي يؤبن جلالة المغفور له الملك فيصل الاول

الاقطاعية في العراق وقانون التسوية

ثم ان العراق اليوم يمثل العصور الاقطاعية بأشوه وجوهها السود ، واقبح صورها المنكرة ، حيث ترى فيه من يملك الوف الفدادين من اراضيه التي تسقى سيحاً او بواسطة المضخات ، وترى في ملكه الواسع العظيم الوفاً من الناس يكدون له ويكدحون ، ويحرثون ويزرعون وليس لأحدهم من مرافق الحياة سوى ثوب اسمال ورغيف خشكار ، وترى صاحبهم في نعيم سابغ ، وعز باذخ ، وشرف شامخ ، يقضي اوقاته في عيش رغيد ، وفي قصف ولهو من كد هؤلاء المدقعين الذين يجرعون كؤوس البؤس والشقاء .

وقد كان للاقطاع أثر في عهد حكومة الاتراك فجاءت الحكومة العراقية التي أبوها الانكليز وأمها الثورة العراقية فقوته ووسعته بقانون التسوية وهي في الظاهر تريد بهذا القانون حسم ما يتعلق بالاراضي من منازعات ومخاصمات بين الناس ، فبمقتضى احكام القانون المذكور تألفت لجان رؤساؤها اجانب وبقيت هذه اللجان في اول عهدها يرأسها رجال من الانكليز اكثر من عشرة سنين . ثم صار يرأس بعضها عراقيون ولم يزل بعضها الآخر تحت رآسة الانكليز الى يومنا هذا .

أما جعل رؤساء هذه اللجان من الانكليز فهو في الظاهر شي تبرعت به الحكومة العراقية وليس هو في الباطن تبرعاً بل كان بطلب من الانكليز انفسهم ، إذ هم يريدون بهذا القانون تثبيت سياستهم الاستعمارية باعطاء من والاهم ، وحرمان من عاداهم ، وليس هناك وسيلة

الى ذلك أحسن من الاخذ بالنظام الاقطاعي فى العراق بواسطة هذا القانون .

وكذلك فعلوا ، فان رجال الانكليز الذين ترأسوا على هذه اللجان قد اعطوا من شاؤا ، وحرموا من شاؤا حسبما اقتضته سياستهم الاستعمارية . فأصبح الذين هم عبيد الانكليز من اكبر الملاكين فى العراق ، ولم تخجل الحكومة العراقية عن دعوى الاستقلال وهي ترى هذه اللجان بحكم رؤسائها تثبت فى العراق نظام الاقطاع على وجه لم يسبق لها نظير فى التاريخ ، فكم ترى فى العراق من صاحب مزارع واسعة ، ومضخات كثيرة ، كان بالأمس صعلوكاً من الصعاليك . اذكر لك إثنين من هؤلاء أحدهما كان جاسوساً من جواسيس الانكليز ايام الاحتلال والثورة العراقية . ولم يزل جاسوساً من جواسيسهم بل عبداً من عبيدهم الى يومنا هذا ..... الذى كان قبل ذلك شواكاً يبيع حزم الشوك فى بغداد وهو اليوم من كبار المثرين في العراق ، والثاني هو .. .. وهذا هو ومن التف عليه من شذاذ عشائر ... .. قاتلوا الثوار العراقيين مع جند الانكليز فى الثورة العراقية حول الرمادي وهيت وحتى وصلت جموعهم الى عنه تتقدم جنود الانكليز طلائع لهم على الثوار العراقيين ، ولما قتل الشيخ ضاري رئيس عشيرة زوبع المستر لشمن الحاكم السياسي فى لواء الدليم والتحق بالثوار العراقيين هو ورجال من عشيرته زوبع كتب اليه . . . . . هذا يتهدده ويتوعده بأن يزحف يه بمجموعة من عشيرة . . . . . حتى اضطره أخيراً الى الخروج من العراق ناجياً بنفسه من طالبي دمه الانكليز و . . . . وملك

الشيخ . . . . . اليوم يمتد من شمالي الرمادى الى ضواحي بغداد .

وأعجب من هذا كله ان تنفيذ قانون التسوية وتأليف لجان برآسة رجال من الانكليز كان فى بدء امره قد جرى على يد زعيم من زعماء العراق وما اكثرهم كما يدعيه المتملقون المتبجحون أعني به . . . . . ذاك الذى :

اقام على عينيه منظار نفعه ثمنه الى كل المقاصد ينظر

وقد اعترضت عليه مرة فى المجلس النيابي فقلت : على سبيل ارخاء العنان فى المحاجة هنا ، إذ سلمنا لكم ان ما للانكليز من القواعد الجوية الحربية فى العراق لا ينافى استقلالها المزعوم ، بحجة ان الانكليز قد ضمنوا فى عهدهم للعراق ان يدافعوا عند وقوع هجوم خارجي عليه فاقتضي ذلك وجود هذه القواعد الجوية فيه ، ولكن ما ذا تقولون فى ترأسهم على المحاكم الكبرى ؟ وعلى لجان التسوية فى العراق ، فان فصل المرافعات الحقوقية والجزائية والمخاصمات المتعلقة بالاراضي ليس من المسائل التى لها علاقة بالانكليز وانما هو من المسائل الدخلية البحتة ، فكيف جعلتم هذه اللجان يرأسها رجال من الانكليز ؟ وهذا هو أيضاً عندكم لا ينافى الاستقلال ؟ ...

فقام . . . . وأجاب بأنهم جعلوا رؤسائها من الانكليز موقتاً ريثما يتدرب العراقيون على العمل تحت رآستهم ، ثم قال واما الاستقلال فشيء غير موجود .

ولقد صدق . . . . فى الجملة الثانية ولم يصدق فى الاولى ، لأن فصل الخصومات المتعلقة بالاراضي ليس من الامور الفنية التي يحتاج العراقيون

فى العمل فيها الى التدريب ، وفيهم من القضاة الحقوقيين من لا يحصى عددهم ، اما الحقيقة فهي ان مصالح الانكليز السياسية الاستعمارية فى العراق هي التي جعلت رؤساء تلك اللجان رجالاً منهم لكي يتسنى لهم بذلك ان يستعبدوا من الناس من شاؤا ويعطوا منهم من أحبوا ، وفى العقبى لكي يثبتوا فى العراق نظام الاقطاع ، كما جرت على ذلك سياستهم فى الهند وفى غيرها من مستعمراتهم فى الشرق ، على أن هـــذا الزعيم المزعوم لم يعاش الانكليز فى هذه السياسة الملعونة لوجه الله ، بل أخذ هو ايضاً يمتلك من الاراضي ما يسد عوز الوف مؤلفة من أهل العراق ، حيث صار له اكثر من مائة مضخة يستغل فى خمس وعشرين منهـــا ، ويشارك اصحاب الاخرى فى ريعها ، هذا عدا ما استغل هو بملكه من نهر ... وعدا ما امتلكه من الرقاق التي يزيد عددها على عشرين رقة فى شواطى ديالى ، كما انه امتلك فى بغداد ارضاً واسعة بنى له فيها قصراً فخماً وهو من اكبر القصور التي بناها الاقطاعيون فى هذا العهد .

ولكنه مع ذلك يسمى بالزعيم ، وليس هو فيما يزعمون بزعيم العراق فقط بل زعيم العروبة التي بعثت من .. فويل له من العروبة وويل للعروبة منه .

* * *

كل ما فى العراق فظيع ، وبقدر ما هو فظيع عجيب ، ومن اعجب عجائبه اننا نرى العراق على فظاعة انمساخه ، وشناعة انسلاخه ، من الاستقلال السياسي بمعناه الصحيح الخالي من كل بهرجة وتمويه ، قد اصبح اليوم حاملاً لواء الزعامة فى العروبة يلوّح بها تلويحاً سياسياً قومياً

الى الشام ، والحجاز ، واليمن ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وتونس والجزائر ، ومراكش ، وهو بذلك فى ظاهر الامر يدعو العرب اجمع الى وحدة قومية سياسية عربية ، وهو فى دعوته هذه يتجاهل ان الامة العربية هي اليوم لحم قد وضعتها على وضمها ثلاث دول عظمى من الغرب ، وهي بريطانيا ، وفرنسا وايطاليا ، وان كل واحدة من هذه الدول قد اناخت بكلكلها على البلاد تستغل كنوزها لتستعبد نفوسها ، وتمد فيها احابيل الفساد ، وتوثق فى اعناق اهلها اغلال الاستعباد ، وتستفرغ كل ما فى وسعها فى التمويه عليهم والتضليل .

ثم ان العراق عند دعوته الى هذه الوحدة يتجاهل وضعه السياسي من بريطانيا ولا يخجل من ان يكذب على نفسه فى دعوى استقلاله ، وهو من معاهدته المعلومة يرسف فى الاقياد ، ويرتعد تحت زمجرة معسكرين عظيمين يسميان مطاراً ، احدهما فى جنوبيه بالشعيبة قرب البصرة ، والآخر فى شماليه بالحبانية على شاطىء الفرات الاعلى ، فهو فى هذا الاستقلال العجيب تراه متعامياً عن شواظ هذين المعسكرين ، متصامماً عن زفيرهما متجاهلاً انه ليس إلا فحمة يذيبها ما هنالك من نيران فى أقل من ساعة من نهار .

وسنتكلم عن هذه الوحدة القومية العربية ، بما يكشف النقاب عما ورائها من دسائس وريب ، سوى اننا نقول الآن على سبيل الاستطراد ان هذه الوحدة هي بنت الوحدة الاسلامية التي كان بعض رجال الترك يضربون على وترها في عهد الدولة العثمانية البائدة ، واذا نظرنا فيما للمسلمين عامة وللعرب خاصة من احوالهم الحاضرة في السياسة والثقافة ،

ولما لهم من سجايا مختلة ، واخلاق معتلة ، وما بينهم من اختلافات دينية، وضغائن مذهبية ، قلنا قولاً لا مراء فيه ان كلتا الوحدتين تكاد تكون من المستحيل عادة أو شبه المستحيل فى الوقت الحاضر ، واكبر مانع لتحقيقها هو السياسة الاجنبية المسيطرة على البلاد العربية ، وعلى اكثر البلاد الاسلامية .

أتريد بعد هذا ايها القارىء الكريم ان نحدثك عمن انجبهم العراق فى هذا الزمان من الزعماء ؟ ، وقد علمت وكما ستعلم فى اية حالة محزنة هو اليوم ، أم تكتفي بمن ذكرنا من زعيم العروبة الذي قد مررنا به مر الكرام ، ولو اننا كشفنا لك عن جميع وجوهه الخفية لطال الكلام ، واستعصى الخصام .

دور الاقطاع

كانت في العراق طبقة قليلة من الاغنياء المختلفي الدرجات في الغنى ، وكان كل واحد من هؤلاء قد جاءته الثروة اما عن طريق التجارة ، أو الزراعة ، واما عن طريق الارث من آبائه واجداده ، ومنذ عشرين سنة تقريباً أي منذ قامت الدولة العراقية الى يومنا هذا قد قامت في العراق طبقة اخرى من الاغنياء . غير الطبقة الاولى ، وهـــذه الطبقة الغنية الجديدة كلها من ارباب المناصب والرواتب ، الذين كان كل واحد منهم قبل ذلك صعلوكاً لا يملك غير دار يسكنها ، أو لا يملك داراً للسكنى ، وقد اصبحوا وهم اليوم من ارباب الثروة الطائلة ، لهم القصور الفخمة ، والعقارات الضخمة والبساتين المثمرة ، والاراضي المستغلة تسقيهـا المضخات الكبيرة ، وتأتيهم منها الغلال الوافرة ، واني لأعرف واحداً منهم كان قبل هذا يذهب من حين لآخر الى الملك فيصل وينكب على اقدامه شاكياً اليه فقره ، حتى ادخل في زمرة الموظفين فتدرج فيها مرتقياً في مدة يسيرة الى الوظائف الكبيرة ، وما مرت عليه عشر سنوات إلا وقد اصبح من اغنياء هذه الطبقة ، وهو اليوم لم يزل مديراً لاكبر دائرة مستقلة من دوائر الحكومة ، كما انه بثروته واملاكه أصبح معدوداً من اغنياء هذه الطبقة الحديثة .

ومن الغريب ان هذا الشخص ، ولا اقول هذا الرجل لأنه اقل من ان يكون رجلاً ، لا بمعانيه ولا بمبانيه ، مع ما اصبح يملكه من ثراء لا يملك رزانة عنزة لا عقل وزّة . بل هو مخلوق من الطيش والحمق

بمكان اوسع من مكانه فى الثراء وهو لعمر الله اجهل من ابن يوم بكل امر من امور الدائرة التي هو مديرها اليوم!

فيا ايها القارىء الكريم اننا لو جمعنا جميع الرواتب التي اخذها هؤلاء من خزينة الدولة ، وفرضنا انهم لم ينفقوا منها فلساً واحداً فى سبيل معاشهم لما بلغت عشر ما يملكون من ثروة ، هذا مع اننا نراهم من العيش فى خفض ورفاهية ، ولم يقتصروا فى انفاق المال على حاجيات الحيات الضرورية فقط بل على الكماليات ايضا ، حتى ان من هو مبذر فى الانفاق ، مسرف في القصف ، فكيف ومن اين جاءتهم هذه الثروة ؟ ! .. فهل فاءت لهم الارض كنوزها ؟ . . أم هل استحاثوا الارض فاستخرجوا ركازها ؟. ام هل عثروا على خزينة فيها فاستخلصوا الذهب منها ؟

فان قلت أليس هذا الثراء الذى حصل لهؤلاء من دلائل تقدم البلاد في عمرانها ، وفى سائر امورها الاقتصادية ؟ . قلنا لو كان هذا الثراء حاصلاً لهم بوسائل عمرانية اقتصادية لكان كما تقول ، اما هو وقد حصل لهم من طرق غير مشروعة كالرشوة واختلاس اموال الدولة واغتصاب حقوق الناس ، والاستئثار بالمنفعة، وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً ، فلا يدل الا على ان فى البلاد فوضى اجتماعية واقتصادية وعمرانية وانه لا عيش فيها ، إلا لارباب السلطة الحكومية .

ثم انه بما امتلكوه من المستغلات يمثلون دور الاقطاع ، إذ يملك احدهم من الارض ما يكفي لمعيشة الجماعات ، فلو وزعت الارض توزيعاً عادلاً على الناس كل منهم بحسب استطاعته واقتداره على احيائها لعم

الرفاه ، وأدى ذلك الى انتعاش البلاد في العمران والاقتصاد ، على ان بعض هولاء قد اخرج من الارض اهلها الكثيرين المعدودين بالعشرات بل بالمئات الذين كانوا يعيشون بحرثها وزرعها من قديم الزمان فانتزعها منهم واستولى هو وحده عليها مستأثراً بها ، ولم يزل هؤلاء الذين انتزعت منهم ارضهم يرفعون شكواهم الى الحكومة من دون ان تسمع لهم شكوى .

وهل من دلائل التقدم في الاقتصاد والعمران ان يعيش واحد فى نعيم ورفاه ، والوف في ضنك وشقاء ؟ ...

نقول هنا على تقدير ان هذا الواحد يعيش فى نعيم قد حصل على النعيم من طرق مشروعة ، فكيف اذا كان هذا النعيم حاصلاً له باغتصابه حقوق الالوف من الناس ، ولا تنس مما تقدم بيانه من الكلام حول قانون التسوية وما فعله رجال الانكليز الذين قاموا بتنفيذه .

الى المغرورين باستقلالهم

قالت العرب فى كلامها استقل فلان بكذا أي انفرد به ، واستقل الوالي بالولاية أي تفرد بها ، ولم يشاركه فيها غيره ، ومن هـذا المعنى اللغوي أخذ رجال السياسة معنى الاستقلال في اصطلاحهم . فصاروا يطلقونه في السياسة والحكم على الحالة التي يكون فيهـا الشعب حراً منفرداً في جميع اموره السياسية ، يحكم نفسه بنفسه لا يشاركه فيها شعب آخر من الشعوب الاجنبية عنه ، ولا يسيطر او يهيمن عليه في جميع شؤونه الا هو نفسه .

فاستقلال الشعب في بلاده كاستقلال المرء في داره ، فكما ان المرء في داره يكون هو الذى يدير فيها جميع اموره ، ويرتب جميع شؤونه لا يشاركه في ذلك ولا يسيطر عليه فيه احد من الناس غيره ، كذلك الشعب في بلاده إذا كان مستقلاً ، سوى انا اذا قلنا في صاحب الدار أو ساكنها انه لا يشاركه فيها غيره فانما نعني بغيره الناس الذين يسكنونه في بلده ، واذا قلنا في الشعب المستقل انه لا يشاركه في بلاده غيره فانما نعني بغيره الشعوب الاخرى من أهل البلاد المتاخمة لبلاده أو البعيدة عنها ،

فمن هذا يتضح لك ان الاستقلال بمعناه الصحيح الذي ذكرناه لا يقبل الشركة من الاجنبي بأى معنى كانت ، ولا السيطرة منه على أي وجه وقعت ، والا كان الاستقلال لفظاً بلا معنى ، واحسن مثال نضربه لك في ان الاستقلال لا يقبل الشركة هو ان طائرة من الطائرات الحربية

مثلاً لا يجوز لها في عرف الاستقلال الصحيح ان تمر مروراً مجرداً في جو بلاد مستقلة غير البلاد المنسوبة هي اليها إلا باجازة من حكومتها التي هي في عرف الاستقلال لها الخيار في اجازتها ان شاءت أجازتها ، وان شاءت منعتها .

واذا كان الاستقلال لا يتسع في معناه الصحيح لقبول طيارة تمر في جوه مروراً مجرداً ، فكيف يتسع لقبول بناء قواعد جوية حربية للطيران الاجنبي في بلاده ؟ .. كما في العراق .

وكيف يتسع استقلال مصر لوجود قواعد بحرية لأساطيل اجنبية في مياه الاسكندرية ؟ ...

لا ريب ان صوان الاستقلال الذي يحفظه من الابتذال عند جميع الشعوب المستقلة هو الجيش المدرب المسلح باسلحة البر والبحر والجو على اختلاف انواعها في هذا العصر ، فهذا الجيش هو الصوان الذي ما اعتده كل شعب من الشعوب المستقلة إلا ليصون استقلاله من الابتذال ، وتالله ان الاستقلال لغيور جد غيور على أهله فهو لا يقبل ان تمسه يد اجنبية ولو بلطف وسلام .

ومعلوم ان الشعوب الحرة المستقلة يتجلى عليها استقلالها الدولي في شيئين رئيسيين احدهما حكوماتها والآخر جيوشها ، وان الحكومة عند جميع الشعوب تكون ذات فروع ثلاثة من قوتها ، الاول فرع القوة التنفيذية ، والثاني فرع القوة التشريعية ، والثالث فرع القوة القضائية ، ويكون الفرعان الاولان مرتبطين أحدهما بالآخر كل الارتباط حتى يجوز ان نقول بأن الفرع الاول هو وليد الفرع الثاني وخادمه

الذى يقوم بتنفيذ أوامره وامضائها . واما الفرع الثالث اعني فرع القضاء فهو فى كل العصور وعند جميع الشعوب يكون مستقلاً استقلالاً خاصاً فى ضمن الاستقلال العام الذي يرفل منه الشعب فى حلل الفخر والحبور .

فعلى هذا يكون القضاء صاحب استقلالين خاص وعام فلذا لا يكون مقاومه إلا فى الدورة العليا من الاستقلال العام دائماً وابداً ، ذلك لأنه هو الغاية القصوى للفرعين الاولين فرع القوة التنفيذية وفرع القوة التشريعية ، إذ لولاه لما قام ملك ، ولا ثبت حق ، ولا تم أمن ، ولا طاب عيش ، ولا سعد شعب ، ولا انتظم للناس اجتماع . واذا كان فرع القوة القضائية متشحاً باستقلالين كما قلنا فهو يأبى قبول الشركة إباءين ، ويرفضها رفضين رفضاً باسم استقلاله الخاص ورفضاً باسم استقلاله العام فهو باستقلاله المثنى لا يقبل الشركة ولا السيطرة حتى من صاحبيه فرعي التنفيذ والتشريع .

ولكنا مع هذا كله نراه فى العراق قابلاً للشركة قبولاً منكراً ، فكيف يكون العراق مستقلاً ومحاكمه الكبرى يرأسها رجال من الأجانب البريطانيين ؟ فسبحان من جعل المر حلواً فى العراق .

فان قلت ان ما ذكرته من الامور المنافية للاستقلال شيء شائن فى حد ذاته غير مألوف ولا مقبول فى عرف الاحرار وعاداتهم ، نقوله طوعاً او كرهاً يشين قابله او يخرج به عن حدود الحرية والاستقلال ، إذ ليس هو إلا من قبيل ان يأتي رجل الى آخر فيريد منه ان يقف امامه موقف اسير ، بأن يضع فى عنقه غلاً وفى رجله قيداً ويقول له ان موقفك امامي هكذا هو من مقتضى مصلحتك الذاتية ، فهل يكون ذلك

الرجل حراً غير أسير اذا قبل منه هذا التكليف عن رضى ؟ . كلا ! بل سواء عليه اقبل ذلك طوعاً أم قبله كرهاً لا يكون إلا اسيراً .

ثانياً : لا نسلم ان هذا الذي ينافي الاستقلال قد وقع في العراق عن رضى من الشعب العراقي رغم موافقة النواب عليه في المجلس النيابي . لانا نعلم حق اليقين ان هذه المعاهدة قد أملتها القوة البريطانية املاء على الحكومة العراقية لكي تقوم مقام الانتداب الذي ضج الشعب العراقي بمقته ، ولهج برفعه ودفعه ، فالغاية التي ترمي اليها بريطانيا في هذه المعاهدة هي أولا تثبيت قدمها الاستعمارية في العراق ، وثانياً التمويه بها على العراقيين انهم سيستقلون ، وان هذا الانتداب بعد هذه المعاهدة سيزول باستقلالهم الذي يتم بادخالهم في عصبة الامم عقب وضعها موضع التنفيذ ، ولم تخجل بريطانيا من جعلها دخولهم في عصبة الامم من مقومات استقلالهم ، وهي تعلم والناس كلهم يعلمون أن حكومات الهند كلها داخلة في عصبة الامم ، وهي مع ذلك في الدرك الاسفل من جهنم أمر الانكليز، وايضاً ان الحكومة العراقية قد اتخذت جميع ما عندها من الوسائل ومهدت جميع ما لديها من الطرق اللازمة لتصديق هذه المعاهدة في المجلس النيابي كالتدابير التي استعملتها في اجراء الانتخاب ، وفي انتقاء النواب وترشيحهم للنيابة ، وكالدعاية الاقناعية التي اعملتها فيهم الى غير ذلك من الامور التي لا يجهلها احد ، فالانتخاب لم يكن حراً ، والنواب لم يكونوا كفاة ، والكفاة منهم لم يكونو احراراً ، وكلنا نعلم ان الانتخاب اذا جرى في درجتين كما هو العراق ، كان التلاعب في مناحيه سهلا ، وكان توجيه مجراه الى الجهة التي تريدها الحكومة يسيراً غير عسير .

وايضاً ان المجلس النيابي في العراق لم يكن مؤلفاً من احزاب سياسية مختلفة في مبادئها ، متعارضة في سياستها كما هو شأن المجالس النيابية عند الشعوب الحرة ، وانما كان المجلس النيابي العراقي ولم يزل مؤلفاً من حزب واحد هو حزب الحكومة لا غير ، فمبدأه مبدأ الحكومة وسياسته سياستها ، وبالجملة هو في كل ما تعرضه عليه الحكومة رهن اشارتها ، فان اشارت عليه بالقبول قبل أو بالرفض رفض وخلاصة القول انه يمثل الشعب تمثيلاً صحيحاً .

وأيضاً ان الذي يدلنا على ان موافقة المجلس على هذه المعاهدة لم تكن إلا نتيجة مساعي الحكومة وتدابيرها الخاصة في تأليف المجلس وتهيئته للموافقة هو ما اوجدته الحكومة في ذلك المجلس من المعارضة المصطنعة على يد الزعيم الهاشمي ، وايضاح ذلك ان وزارة نوري السعيد التي جرى في عهدها تصديق المعاهدة العراقية البريطانية لم تر من المناسب ولا من اللائق ان تخرج هذه المعاهدة مصدقة من المجلس النيابي من دون معارضة ولو ضئيلة فعمدت الى الهاشمي وأوحت اليه ان يقوم بهذا الأمر مع بضعة نواب من اصحابه فانتقى له من النواب من انتقى ، وتواضعوا على ان يعارضوا المعاهدة ، ويصوتوا برفضها ، وكذلك فعلوا ، فهذه المعارضة كانت مصطنعة مفتعلة من قبل الحكومة نفسها ، ولم يصوت برفض المعاهدة نائب خارج عن هذه المواضعة غيري انا ، فأنا وحدي رفضتها من دون ان يواضعني على رفضها احد . فمن هذا يتضح لك ان كل ما جرى في المجلس النيابي في شأن المعاهدة لم يكن إلا بتدبير وتمهيد من الحكومة ، فدعوى ان ما وقع في العراق من

الامور المنافية لاستقلاله قد وقع برضى من الشعب العراقي غير صحيح.

ثالثاً : ان كل معاهدة تقع بين دولتين يجب ان تقوم على اساس تبادل المنفعة وإلا لم تكن صادقة ، وعليه فلا بد للدولتين المتعاهدتين من التكافؤ في القوة ولو نسبياً ، إذ ليس في الدنيا محكمة ترجع اليها الدولتان المتعاهدتان اذا نقضت احداهما العهد اذا خلت به ، وانما المرجع في ذلك الى القوة لا غير ، واما الاعتماد في الوفاء بالعهد على شرف المعاهد فحماقة وبلاهة ، لأن الغدر في السياسة مباح ، من حيث ان القاعدة المتبعة عند ساسة الدنيا في جميع العصور هي ان الغاية تبرر الواسطة فالقوة وحدها هي التي تفصل الخصومات بين الدول ، هذا اذا كانت المعاهدة بين دولة واخرى مثلها ، اما اذا كانت بين دولة قوية واخرى ضعيفة ، ولا شيء كالعهود التي قطعت بها بريطانيا للملك حسين ترغيباً له في الخروج على الدولة العثمانية .

واذا كان التكافؤ في القوة بين المتعاهدين لازماً ضرورياً لصدق المعاهدة والوفاء بالعهد كانت قيمة كل معاهدة مادية لقوة عاقدها بلا ريب ، وبعبارة اخرى كان احترام كل من الجانبين لتعهد صاحبه لا يكون الا بمقدار قوة الجانب الآخر ، وبهذا نعلم انه لا قيمة لمعاهدة تقع بين ضعيف وقوي خصوصا اذا كان القوي قد أملى معاهدته على الضعيف إملاءً ، وخصوصا اذا كان ذلك القوي قد عاهد حكومة هو اقامها او هو الذي الجأته الظروف الى الاعتراف بها ، فهل من المستغرب بعد هذا كله ان يملي عليها كل ما تقتضيه مصلحته السياسية والاستعمارية ؟! ويطلب منها الموافقة عليه باسم معاهدة .

ان المعاهدة التي تقع بين ضعيف وقوي كالمعاهدة العراقية البريطانية لا يجوز في عرف السياسة ان تسمى معاهدة إلا على طريق التمويه والمخادعة والمواربة بالكلمات والالفاظ ، وانما هي ظلم وارهاق ، وكل من قبل الظلم والارهاق لا يكون حراً ، ومن لم يكن حراً كان بعيداً عن الاستقلال بعد الثريا عن الثرى . وبهذه المناسبة اذكر لك بيتين من ابيات قلتها عند تصديق المجلس العراقي معاهدته المعلومة :

والعهد بين الانكليز وبيننا كالعهد بين الشاة والرئبال
من ذا رأى ذئب الذئاب معاهداً بصداقة حملاً من الاحمال

المرحوم الرصافي في بدء جهاده العلمي

التمويه والخداع صبغة السياسة البريطانية

كل ما ذكرناه عن سياسة الانكليز الاستعمارية . يدل بوضوح على ان مجد امبراطوريتهم الاستعماري مصبوغ من اوله الى آخره بصبغة الخداع والتمويه ، فهـــذه الصبغة هي السمة التي تعرف بها سياستها الاستعمارية ، والميزة التي تمتاز بها على غيرها ، كما انها هي الاساس الذي قام عليه مجد امبراطوريتهم ، واما قوتهم المادية المتناسبة في العظم مع هذا المجد العظيم فانها فرع من فروع ، وثمرة من ثماره ، وبهذا تخالف بريطانيا غيرها من الدول ، وبه تشذ وحدها عن الامم ، إذ لا ريب ان كل دولة من الدول لا يقوم بناء مجدها إلا على اساس قوتها المادية ، فلا يكون فرعها الا فرعاً من فروع قوتها المادية ، وثمرة من ثمارها بخلاف بريطانيا فانها فى ذلك على العكس .

ان بريطانيا لم تستول على هـــذه المستعمرات المترامية الاطراف بجيوشها الجرارة ، ولا بحروبها الطاحنة ، بل بطرق خداعية تكون فى بدء امرها إما تجارتها ، واما اظهار عطفها على البشرية ، وقيامها باسم الانسانية لتحرير الرقيق ومنع الرق أو نحو ذلك ، كانتصارها للاقليات المضطهدة ، وكقيامها لحماية دول ضعيفة من اعتداء دولة قوية . الى غير ذلك من إثارة الفتن ، ودس الدسائس ، وتدبير المكائد ، ومد الاحابيل الى البلاد التي تتجه اليها مطامعها الاستعمارية .

وفيما مر ذكره فى هذه الرسالة كفاية لاثبات صحة ما نقول ، ولكننا مع ذلك نريد ان نذكر ههنا ما يكون لك ايها القارىء الكريم برهاناً

قاطعاً على صدق ما ندعيه ، الا وهو توسع بريطانيا فى أساليب التجسس توسعا لم تسبقه اليه دولة فى هذا العصر وفى جميع العصور الماضية .

دائرة التجسس البريطانى

للكاتب اللبناني الشهير الاستاذ يوسف يزبك كتاب صغير الحجم ، جليل القدر سماه « النفط مستعبد الشعوب » يجب وجوباً عاماً على كل شرقي ، وخاصاً على كل عربي ، واخص على كل عراقي ان يتقرب الى الله بمطالعته كل يوم .

وقد تكلم الكاتب المفضال فى كتابه هذا تحت عنوان «سيدة العالم» عن دائرة التجسس البريطاني ، ونحن نلخص لك بعض ما قال فى الكتاب المذكور .

قال ما حاصله : ان فى شارع « دونتغ ستريت » من لندن عاصمة الانكليز بناية عظيمة جداً هي مقر سيادة العالم ، أو دائرة التجسس البريطاني ، يبلغ عدد موظفيها ثلثمائة الف عامل فى انحاء العالم ، وقد ذكرت جريدة التيمس ان هذه الدائرة تسحب من موازنة الحكومة الانكليزية اكثر من ثلاثة مليارات فرنك سنوياً .

وان هذه الدائرة مستقلة كل الاستقلال عن الحكومة الانكليزية وانها تملك اسهماً فى مشاريع رأسمالية دولية ضخمة ، وتسيطر على مصارف ومصانع ومزارع وشركات عظيمة في سائر انحاء المعمورة ،

وتملك في المستعمرات الانكليزية اراضي شاسعة ويقال ان نصف المستعمرات هو ملكها الخاص ، فليس من العجب ان نراها تدير سياسة الامبراطورية وتضع خطط حكوماتها ومناهجها . وان تكون صاحبة القول الفصل فى أي اصطدام يقع بين سياستها وسياسة احدى الدوائر الوزارية .

وان الموظفين فى هذه الدائرة تجهلهم الحكومة الانكليزية ولا تعرفهم . بل هم انفسهم ايضاً لا يعرف أحدهم الآخر ، وقد يكون لهذه الدائرة موظف فى بيروت مثلا فيقضي عشر سنوات فيها والقنصلية الانكليزية لا تعرفه ولا علم لها به ، وهو لا يقترب منها إلا عند مسيس الحاجة الرسمية اليها كالتأشير على جواز سفر أو تسجيل عقد أو غير ذلك ، وربما تعتقد القنصلية عند مراجعته اليها انه سائح ، او عالم من علماء الآثار ، أو مهندس شركة ميكانيكية ، او تاجر سيارات ، او ممثل مصنع جوخ ، او راهب من رهابين البعثات التبشيرية ، وما هو فى الواقع إلا موظف من الموظفين في دائرة التجسس البريطاني .

وان ارادتها هي الفعالة فى توجيه مرامي السياسة البريطانية الى حيث تشاء ، وان الحكومة الانكليزية لا تبرم امراً ولا تنقضه إلا باشارة منها بعد موافقتها ، ولا ريب ان لازدهار جزيرة انكلترة ونموها علاقة محكمة الارتباط بهذه الدائرة . فصارت انكلترة وهي الجزيرة الصغيرة أعظم دولة فى العالم بمساعي هذه الدائرة واعمالها ، واصبحت هي أيضاً اعظم مؤسسة فى العالم بفضل ما وصلت اليه انكلترة من سمو الشأن والسلطان ، وقد عرفت الدول كلها أهمية التجسس فاعتنت به وارصدت

له الاموال الطائلة ، ولكنها قصرت جميعها عن استظهار صفحة واحدة من صفحات مجلد ضخم لدائرة التجسس البريطاني ، وقد ذكر الاستاذ يوسف يزبك كثيراً من اعمالهم الغريبة ، ومكائدهم العجيبة ، قال ومما يروى عنهم في مصر انهم كانت لهم يد في انشاء الجمعيات السرية التي كانت تقوم بأعمـــال فوضوية بين وقت وآخر فتقتل بعض الاشخاص البارزين لخلق الازمات السياسية ، وترمي القنابل على القصور لاستغلال الرأي العام بحوادث الارهاب عندما تكون سياستهم بحاجة الى ذلك . قال ولم يقتل حاكم السودان السردارلي ستاك سنة ١٩٢٤ إلا عصابة من عصاباتهم السرية التي يمدونها بالمال حتى انتج قتله ذلك الانذار البريطاني القاسي الذي رفضـــه رئيس الحكومة الوطنية سعد زغلول فاستقال وتعطلت الحياة النيابية فى مصر .

وقال ولهم فى العراق وايران والافغان والحجاز حوادث تاريخية لم يكشف القناع عنها كلها حتى اليوم ، ولكن الثابت منها يؤكد انهم غير بعيدين عن سلوك الشاه احمد قاجار ، وغير بريئين من خلع أمان الله ملك الافغان ولا من تنازل الملك حسين عن عرش الحجاز ،

ونحن لو اردنا ان نستقصي تفاصيل هذه الحوادث بعللها واسبابها لكتبنا فى ذلك مجلداً ضخماً وليس ذلك مما يسعنا الآن ،

ولنذكر لك بعد هذا آخر فقرة كتبها الاستاذ يوسف يزبك فى هذا الفصل من كتابه .

قال ومهما قيل فى هذه الدائرة الجبارة ، ونسب الى موظفيها من اعمال خارجة على القوانين ، ومبادىء الحق والعدل فانها تستطيع الزعم بأنها

دعامة متينة في انشاء الامبراطورية البريطانية التي لا تغرب الشمس عن املاكها ، وقد علمتنا الحوادث والتجارب ان دول الغرب كلها واحدة في الاستعمار ، وان اختلفت الاساليب ، واذا رأينا بعض كتاب الغرب ينددون بأعمال دائرة التجسس البريطاني فليس ذلك الا من حسدهم . ولو انهم استطاعوا ان يأتوا بأعمال هـذه الدائرة حتى في الجرائم التي ينسبونها اليها لما قصروا في الاتيان بمثلها .

المرحوم الرصافي ويرى عن يمينه الاستاذ سعيد البدري جامع هذا الكتاب وعن يساره بعض زواره في الفلوجة سنة ٩٤٠

الطفل الهرم والدولة العثمانية

... قد ولد مولود يسمى ...، وبالنظر الى اعمار الدول لم يزل هذا المولود طفلاً في المهد، أو هو بلا مهد، وانما هو في قماط شديد يسمى الزيت فاذا لم يقيض الله له مربية طيبة، غير خناء، ورزاناً غير ولهاء، تعرف كيف ترخي من قماطه، وكيف تحضنه وتغذيه، وكيف تحفظه من طروق الامراض، وطروق الآفات لم تكن نشأته حميدة، ولا خيره مأمولاً، كما انها لا ترجى له حياة سعيدة، ولا عمر طويل، خصوصاً في هذا العصر الذي اكتشفت فيه الطرق العلمية الى حفظ صحة الاطفال، والبنات والكهول والشيوخ.

اما حالة هذا المولود الذي هو اليوم يناهز العشرين من عمره، فغريبة لا تقل غرابة عن ميلاده.

ومما يتقيأه القلم على القرطاس بمرارة علقمية، اننا نري اعراض الشيخوخة والهرم بكل ما يتصور فيها من آلام واسقام، بادية في هذا المولود فهو بحالته هذه يمثل للناظر حالة الدولة العثمانية التي كان يعبر عنها ساسة الغرب بالمريض المحتضر.

لقد ادركنا كلنا الدولة العثمانية في عهدها الاخير، وقد رأينا بأعيننا ما كان فيها من اعراض الهرم وامراضه، إذ كان لها سلطان ظالم مستبد وهو عبد الحميد الذي كان يرى الرعية كلهم يعيشون لأجله، والذي كانت له خزينة خاصة تفوق خزينة الدولة العامة، والذي كان جديراً بأن يعد اكبر ملاك في الامبراطورية العثمانية بما امتلكه من القطائع والاملاك.

وكان رجال دولته من الوزراء وغيرهم مثله ايضاً لا تهمهم إلا انفسهم ، وكان احدهم لا يطلب المنصب الا ليتوصل به الى منفعته الخاصة دون المنفعة العامة .

وكانت الرشوة فاشية ، فكان الصعلوك اذا تسنم منصباً فلا تمر عليه ايام إلا وقد اصبح من اهل الثراء ، وكانت الامور لا توسد الى اهلها ، فلا الكفاية ، ولا المقدرة ، ولا الاستقامة ، ولا الصدق ، والامانة ، كل ذلك لا عبرة له فى توسيدها وانما توسد بأحد عوامل ثلاثة ، المنسوبية ، والمحسوبية والرشوة ، وهناك عامل رابع وهو ارضاء طائفة من الطوائف ، وما اكثرها فى الدولة العثمانية ، ففلان المسيحي لم يكن وزيراً فى ذلك العهد إلا ارضاء لطائفة ، وفلان الكردي لم يكن مشيراً إلا ارضاء لطائفة من الاكراد .

وكانت قوانين الدولة وانظمتها فى ذلك العهد غير نافذة الاحكام إلا على الضعفاء ، كما انها كانت آلة بيد رجال الدولة يهلكون بها من عاداهم وينعشون من والاهم ، وكانت هذه الحالة المحزنة سبباً كبيراً من اسباب فساد الاخلاق العامة ، فكان التزلف فى اهل المناصب من رجال الدولة بالتملق ، واظهار العبودية لهم عادة مستحسنة ، وخلقاً مرضياً عند عامة الناس ، وكان التجسس لهم من دلائل الصدق في المودة ، وكانت السعاية والنميمة من فواشي الامور بين الناس ، الى غير ذلك من المفاسد التي كانت بها الدولة تسير آخر شوط من حياتها .

هذا عدا ما كان من الضغط على حرية الافكار ، وحرية الصحافة والنشر وحرية الاجتماع ، فالافواه مكممة ، والصحف مسيرة مأجورة ،

والحرية الشخصية منتهكة ، والبيوت غير مصونة .

ولما ادرك خطر هذه الحالة وفظاعتها طبقة من احرار البلاد ، وكان اكثرهم من أمراء الجيش وضباطه ألفوا جمعيتهم المعلومة وهي « جمعية الاتحاد والترقي » .

واخذوا يعملون تحت استار الخفاء ، حتى قاموا قومتهم المعلومة ، فأعلنوا الدستور ، ثم قضوا على عبدالحميد واتباعه وقد انظم اليهم نادى بدء عامة الناس في جميع البلاد إلا النزر اليسير ، وكان اكثر الذين انظموا اليهم من اؤلئك الناس الذين عاشوا زمناً طويلاً في تلك الحالة المحزنة التي دب منها الفساد في الاخلاق العامة ، فلم يسكن انضمامهم الى الجمعية إلا بداع من دواعي المنفعة الخاصة .

* * *

ومن هنا دب الفساد في الجمعية نفسها ايضاً ، واختلط فيها الطالح بالصالح ، والخبيث بالطيب ، وكان هذا اول خطأ وقعت فيه الجمعية ، ذلك الخطأ الذى ادركتها به الشيخوخة وهي في عهد طفوليتها ، لذلك لم تعش هي ولا الدولة العثمانية إلا مدة يسيرة من الزمن .

فيفهم من هذا ان اعلان الدستور لم يكن إلا من قبيل صحوة الميت في الدولة العثمانية ؟ نعم ! كان اعلان الدستور من قبيل صحوة الموت للمريض المحتضر ، لأن الحالة السابقة التي كانت في عهد عبد الحميد لم تتبدل الا بالاسم . فالعوامل التي مر ذكرها والتي كانت توسد بها الامور الى غير اهلها لم تزل باقية كما كانت في السابق ، حتى لقد زادت عاملاً آخر وهو عامل التحزب الاعمى للجمعية فانتساب المرء الى الجمعية

الاتحادية كان وحده كافياً لتسنم اعلى المناصب ونيل اكبر الوظائف فى الدولة فكيف تظهر للدستور نتيجة حسنة ، وقد علمنا ان اكثر الذين انظموا الى هذه الجمعية انما هم من ارباب المطامع الخاصة ، والاخلاق الفاسدة .

ولذا كانت النتيجة بعد اعلان الدستور بقاء الحالة السابقة واستمرار تلك العوامل فى فعلها السابق من توسيد الامور فى الاكثر الى غير اهلها ، لا سيما العامل الجديد عامل التحزب الاعمى للجمعية .

وكانت حرية الفكر مهانة ، والضغط بالغاً مبلغه على حرية الصحافة والاجتماع وعلى حرية تأليف الاحزاب السياسية ، التي لا تقوم الحكومة الدستورية إلا بها ، حتى قضوا على كل حزب سياسي عدا حزبهم ، فكان مجلس النواب مؤلفاً من حزب واحد هو حزب الاتحاد والترقي ، وكان انتخاب النواب اسمياً وكانت القوانين تسن فى بعض الاحيان لامور خاصة ، او لاشخاص معلومين ، يراد بهم الخير او الشر الى غير ذلك من المفاسد التي كانت فى عهد عبد الحميد .

ولم يمض على حياة الجمعية الاتحادية زمان طويل ، حتى حصل لها اعداء الداء فى جميع البلاد ، وليس فى ذلك ما يدعو الى التعجب أو الاستغراب ، لأن الذي ينظم الى الجمعيـة لأجل منفعة خاصة كيف لا ينقلب عدواً لها بالحق أو بالباطل اذا فاتته تلك المنفعة . ولذا كانت الجمعية تهتم بمكافحة اعدائها وخصومها اكثر من ان تلتفت الى شيء آخر مما تحتاج اليه البلاد ، حتى جاءت الحرب العامة فقضت على الدولة العثمانية وعلى الجمعية معاً ، لأن الدولة كانت بما فيها من الاوصاب كالمريض المحتضر فأقل حادث يفزعه أو يزعجه يقضي عليه .

طفلنا المولود

ايها القارىء الكريم اغسل صدرك سبع مرات بصابون الاخلاص والانصاف ، حتى لا يبقى فيه أثر من حقد ، أو حسد . او طمع ، أو غش ، أو اثرة وانانية ، ثم قف عند هذا الطفل وقفة طبيب حاذق ، قد أقسم بالمحرجات ان يكون خادماً للانسانية ، ثم انظر اليه ، وامعن نظرك فيه ، وجسه من جميع نواحيه ، وقلبه كما يقلب الطبيب مريضه ، فانك اذا فعلت ذلك ستقوم عنه متحيراً ، وترجع القهقرى مدهوشاً ، وتقول بصوت مرتجف أطفل في المهد أم شيخ هرم ؟! وما ذلك إلا لانك ترى كل ماكان في الدولة البائدة وهي في عهد شيخوختها وهرمها من الامراض موجوداً بعينه ومينه في هذا الطفل ، وهو في مهده . واذا أردت ان تعرف ما فيه من الامراض والاعراض فأعد نظرك فيما ذكرنا من أمراض الدولة البائدة فذاك هو الذي تراه فيه ، على وجه اشنع وافظع مما كان في تلك .

* * *

واذا جاز ان نشبه دوائر الحكومة بالحديقة ، جاز ان نشبه بالازهار من فيها من الموظفين الكفاة من أرباب الاستقامة والمقدرة ، وعندئذ نقول :

انك اذا اطلعت على هذه الحديقة ... رأيتها مملوءة بالاشواك التي بينها شيء يسير من الازهار ، ....

الأمر من غرس يد الانكليز في ايام الاحتلال ، ولما كان فساد الاخلاق متفشياً فيها ايضاً بالوراثة من الدولة البائدة ، وكانت المصلحة الاحتلالية تقضي غرس هذه الحديقة على أي وجه كان ، غرسها قادة الجيش المحتل، ولم يراعوا في غرسها إلا مصلحتهم فانتقوا ازهاراً هي بالنسبة الى مصلحة البلاد لم تكن إلا اشواكا ، فهذه الاشواك التي نراها اليوم في الحديقة كانت في بدء غرسها ازهاراً انكليزية ثم جاءت الثورة ، فألفوا بعدها حكومة ، ووسعوا هذه الحديقة ذات الازهار الانكليزية فأنقلبت ازهارها الانكليزية اشواكا وهم لم يغرسوا فيها بعد توسعها إلا ما ارادوه ورضوا عنه ، مما يوافق مصلحتهم الاستعمارية ، لأن مصلحتهم الاحتلالية قد استحالت بعد الثورة إلى مصلحة استعمارية ، وان كان الاحتلال باقياً الى يومنا بشكل قواعد جوية] .

* * *

يقال اذا عرف السبب بطل العجب ، واذا قد عرفت ايها القارىء الكريم كيف غرست حديقتنا هذه ، وأي يد غرستها في بدء أمرها ، واي مصلحة روعيت في غرسها ، وكيف انتقيت لها ازهارها المغروسة لم تتعجب اذا رأيت فيها انواع الاشجار الشائكة أو اجناسها . فمن عضة قائمة تحت ظل عفاهة ومن عوسجة الى جنب غرقدة ، ومن كسوبة وراء عرفجة ، ومن عرفطة أمام قتادة ، ومن سحائة بين عاقولة وهراسة، ومن علفاة تهتز بين حلفاء .

ومعلوم ان شجر الورد على اختلاف انواعه شائك فلا غرابة في ان يصحب الورد شوك ، ولكن الغرابة هي كما في هذه الحديقة

أن ترى شوكاً بلا ورد .

ومن العجب ان وخز هذه الاشواك خفي لا يمكن اثباته .

* * *

جاءت احدى الوزارات فسنت قانون « انضباط الموظفين » وكان الاولى ان يسمى بقانون صيانة الاشواك فى الحديقة ... لأن هـذا القانون جاء كأنه سياج حول تلك الحديقة فلا يستطيع أمير ولا وزير ان ينال شيئاً من اشواكها بخضد او اجتثاث ، فان الموظف بمقتضى هذا القانون اذا ارتكب فى وظيفته جريمة أحيل امره الى لجنة تؤلف لهذا الغرض ، وعندئذ تبقى القضية منحصرة بين الموظف المجرم وبين رجال اللجنة أو احد رجالها ، ويمتد الزمن ويطول الامد فيتسع المجال للموظف المجرم في اتخاذ الوسائل المشروعة وغـير المشروعة لنجاته وبرائته ، وفى النهاية لم يرعنا إلا ان نرى ذلك الموظف قد عاد الى وظيفته بكل سرور وحبور رغم كون جريمته ملموسة محسوسة ، آثارها ظاهرة ، واخبارها متواترة ، وفي اليوم الذى نشر فيه هذا القانون المذكور الى يومنا هذا لم نر لجنة انضباطية عاقبت موظفاً مجرماً ، بل كل من حوكم فيها خرج اما بريئاً وأما موبخاً بتوبيخ لو القي على عفيف لاحتمله فكيف اذا القي على لص أو لغيف .

* * *

ثم قامت وزارة اخرى فرأت لاغراض شخصية خاصة أن تقلع من هذه الحديقة بعض اشواكها ، او ان تخرط شيئاً من شوك قتادها ، ولكن قانون انضباط الموظفين يحول بينها وبين ما تريد ، فصعب ذلك

عليها ، وهل شيء اصعب من خرط القتاد ، ثم هونت تلك الصعوبة بأن جاءت الى المجلس النيابي بلائحة قانونية جعلتها ذيلاً لقانون انضباط الموظفين ، وقد ضمنت تلك اللائحة ما يبيح لها قلع الاشواك وخرطها فقلعت وخرطت وخضدت واجتثت كما شاء لها الهوى لا كما تقتضيها المصلحة العامة .

ثم جاءت وزارة اخرى فرأت من اغراضها الخاصة أن تعيد تلك الاشواك المجتثة الى منابتها فاعادتها ولكن لا مرة واحدة بل بالتدريج في ايام عديدة . ولا حاجة ان نذكر لك الطرق التي سلكتها في اعادة تلك الاشواك الى منابتها فانها واضحة معلومة .

ثم ذهبت تلك الوزارة وجاءت وزارة اخرى ، فرأت من اغراضها الخاصة ان تقوم بشيء من الاجتثاث ايضاً فهان عليها بما تعلمته من سابقتها فجاءت بقانون جعلته ذيلاً لقانون الخدمة المدنية . لا لقانون انضباط الموظفين ، اذ لم تستحسن ان يكون لقانون واحد ذيلان ، واباحت لها في هذا الذيل ما ابيح لها في الذيل الاول ، فقلعت وخرطت وخضدت واجتثت كما شاء لها الهوى .

ولا حاجة ان نطيل عليك فنقول : ثم قامت وزارة اخرى فنقضت ما ابرمته تلك ، ثم اخرى فهدمت ما بنته هذه ، فان طرق التذييل بعيدة المدى ليس لها نهاية ، ولا نظن ان الاشواك المجتثة كلها اعيدت الى منابتها ، بل انما اعيد من تيسر له ان يعاد .

* * *

ومن كثرة الذيول التي تذيل الحكومة قوانينها نشأت في العامية

الدارجة لغة تداولتها الالسن العامة والخاصة ... اذ صاروا يستعملون التذييل في كلامهم بمعنى الاخراج من الوظيفة ، فيقولون فلان مذيل أي مخرج من الوظيفة ، وفلان ذيلوه ، وهذا كان من المذيلين في الوزارة السابقة وهو من الموظفين في الوزارة القائمة ، وتذيل فلان اذ اخرج من الوظيفة بالذيل الى غير ذلك من كلامهم .

* * *

وقد ارادت الحكومة مرة عزل رئيس من رؤساء البلديات ، ففتشت عن وسيلة قانونية تتخذها لعزله فأعيتها ، وكان رئيس الوزارة إذ ذاك يريد هذا العزل على أي وجه كان لمأرب شخصي ، وحاجة في نفسه ، فوضع نظاماً جديداً للبلديات يجيز نقل رؤساء البديات وتحويلهم من بلدة الى اخرى ، فصادق على هذا النظام مجلس الوزراء . وكان الغرض منه دفع ذلك الرئيس لا غير ، لانه يعلم ان هذا الرئيس لا يقبل النقلة ، وانه يستقيل اذا نقل الى بلدة اخرى ، وكذلك وقع اذ استقال الرئيس وتم الامر كله وبقي ذلك غير معمول به الى هذا اليوم .

* * *

ولعمري ان ما ذكرناه لك على سبيل المثال لواحد من مئات . فسبحان من جعل... وهو في هذه الحالة المنكرة يجيش بالزعماء كما يقولون .

الوحدة الاسلامية

« ... ان الوحدة الاسلامية هي الغاية القصوى ، والمثل الاعلى في دين الاسلام ، وهي روح الاسلام وجوهره ، فاذا تجرد الاسلام منها كان قشراً بلا لب ، وجسما بلا روح ، والذي يمثل لنا هذه الوحدة من القرآن قوله تعالى : « انما المؤمنون إخوة » ومن الاحاديث النبوية قول رسول (ص) « المسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » .

نعم ! ان العرب المسلمين ارتدوا عن هذه الوحدة ، وقد ظهر دخان ارتدادهم في فتنة قتل عثمان (رض) ، ثم اندلع لهيبه في خلافة (ع) ولم يقيض الله تعالى لاخماد هذا الارتداد عزماً كعزم أبي بكر ، ولا كسيف خالد بن الوليد ، فبقي اواره يشتدّ ، ولهيبه يتسع ويمتد كلما مرت السنون ، وتوالت العصور ، حتى تفرق المسلمون شيعاً ، وحتى كثرت الفرق الاسلامية وتعددت النحل المذهبيـــة . وتفاقمت البدع المنكرة ، ودخل بين هذه المذاهب شيطان السياسة ، فألقى على نيرانهم من الحطب الجزل ما زادها اشتعالاً ، حتى صار يكفر بعضهم بعضاً ، ويتعصب كل منهم لبدعة ضد غيرها من البدع ، وهكذا الى يومنا هذا ، فسبحان مركز الامم بعد انهاضها ومسفلها بعد اعلائها .

ما شيعة وما سنة

فان قلت ما شيعة وما سنة في الاسلام ، قلت الظاهر ان كلمة شيعة في الاصل مصدر مبني للنوع ، من قولهم شاع فلاناً شيعاً وشياعاً اذا تبعه ، ولما كان عبد الله ومالك بن الاشتر واضرابهما من اتباع عليّ وانصاره صاروا بعد ذلك يقال لهم الشيعة على حذف المضاف أي أهل الشيعة ، ويقال للواحد منهم شيعي نسبة الى شيعته ، ويقال هؤلاء شيعة فلان أي اتباعه وانصاره . ثم غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً واهل بيته حتى صار اسماً لهم خاصاً بهم .

واما سنة فهي في اللغة بمعنى السيرة والطريقة ، ثم اصطلح علماء الدين من المسلمين على اطلاقها على كل ما هو مأثور عن النبي (ص) من فعل أو قول ، وصار المتمسكون بذلك بأهل السنة والواحد منهم سنيّ نسبة الى سنة .

وكلتاهما اعني الشيعة والسنة بمعناها المتعارف اليوم في كلام العامة من البدع .. في الاسلام ، لان الاسلام كما قلنا آنفاً هو دين الوحدة فلا يجوز لاهله ان يفترقوا الى فرق متعددة ولو بالاسم ، ومتى افترقوا لم يبق عندهم من الاسلام إلا اسمه ، وكيف يفترقون وهم يد واحدة على من سواهم ، وكلهم متساوون في الحقوق ، بحيث تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم .

هذا هو الدين الذي جاء به محمد بن عبدالله ، فكل ما خالفه وناقضه بدعة وضلالة .

وهل يشك أو يستريب احد فى ان افتراق المسلمين الى فرق مختلفة كشيعة وسنة مخالف للاسلام الذي هو دين الوحدة ؟ ...

فالمسلم الصحيح يجب ان يكون وان يتسمى مسلماً لا غير ، فلا هو شيعي ، ولا هو سني كما كان اصحاب رسول الله مسلمين لا غير

كذلك يجب على المسلم ان يكون حراً فى حياته ، وحراً فى تفكيره أيضا ، ومعنى كونه حراً فى حياته أن لا يقبل حكماً الا لله ولا يخضع لسلطان الا سلطان الله ، وحكم الله وسلطانه لا يتجليان له إلا فى الشرع الذى انزله الله على نبيه محمد ، وفى القانون الذى اجمع عليه المسلمون ، لان اجماع المسلمين منبعث من وحدتهم فهو يحمل روح الاسلام الذي هو دين الوحدة ، فلذا يكون حكمه وسلطانه كحكم الله وسلطانه ، فعلى المسلم ان لا يقبل حكما الا لله ، وان لا يخضع إلا لسلطان الله ، واذا كان كذلك كان بلا ريب حراً فى حياته .

واما معنى كونه حراً فى تفكيره ، فهو انه لا يكون تبعا لغيره فى معرفة اموره الدينية ، المتعلقة بحياته اليومية وحياته البيتية ، أي لا يجوز له ان يكون مقلداً لغيره ، بل عليه ان يكون حراً مطلق التفكير فى جميع نصوص الشرع وادلته ، بحسب اقتداره واجتهاده على شرط ان لا يخرج به اجتهاده عن الوحدة الاسلامية التي لا يتقيد تفكيره بشيء غيرها والتي لا يدين الله الا بها .

هذا فى النصوص الشرعية التى هي عبارة عن كتاب الله وسنة نبيّه ، أما فى غيرها من الامور التي حدثت فى تاريخ الاسلام كخلافة فلان ، وولاية فلان ، وما اشبه ذلك ، فهو حر فيها حرية طبيعية قبل الاسلام

وبعده ، فكل مسلم له ان يفكر حراً فى كل مسألة من المسائل التي حدثت فى تاريخ الاسلام ، وان يبدى فيها رأيه الخاص الذى أداه اليه تفكيره واجتهاده على أي وجه كان ، وليس فى ذلك علاقة بالدين ، ولا فيه غضاضة على أحد من المسلمين .

ولكن المسلمين بما استولى عليهم من الجمود فى الفكر والخمود فى الطبع ، لم يكتفوا من تفرقهم بشيعة وسنة ، وشيعي وسني بل اصبحوا مقلدين حتى في مسائل الوضوء والاستنجاء ، فهذا جعفري وهذا حنفي وذاك شافعي والآخر مالكي أو حنبلي الى غير ذلك من المذاهب ..... والتي اصبح كل واحد من اهلهـــا يزدري الآخر ويقول بتخطئته ويعاديه ، فضاعت بذلك وحدة الاسلام التي جاء بها محمد بن عبد الله ...

الهداء الهدى

من شعائر الحج في الجاهلية والاسلام اهداء الهدى ، وهو مايهدى الى الحرم من الانعام ، التي هي الأبل والبقر والضأن والمعز ، إلا انهم كانوا يهدون البدن لأنها اعز شيء لديهم ، أو لانها ميسورة لهم اكثر من غيرها من النعم ، والبدن جمع بدنه سميت لعظم بدنها وهي الابل خاصة ، الا أن رسول الله (ص) الحق بها البقر فجعلها في حكم الابل ، وسبعة من الضأن او المعز تعدل بدنة او بقرة ، فكانوا اذا حجوا يسوقون معهم الهدى الى الحرم ، وكانوا يقلدونه بشيء من نعل ، او عروة مزادة ، او لهاء شجرة ، لتعرف انهـا مهداة الى الحرم ، فلا يتعرض لها بشيء من المنع أو الغصب او نحو ذلك ، فكانت هي قرابينهم التي يتقربون الى الله بذبحها ، فينحرونها في منى في أيام النحر ، وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من نسائكهم اي ذبائحهم بل يطعمونها الفقراء. الا ان النبي سن للمسلمين ان يأكلوا منها ، وجاء في سورة الحج : « والبدن جعلناها لكم من شعائر الله . لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر » .

وقد اهدى رسول الله لما حج حجة الوداع ثلاثة وستين بدنة وقيل مأة بدنة ، قال الحلبي في سيرته . وجاء عن ابن عباس قال اهدى رسول الله في حجة الوداع مأة بدنة نحر منهـا ثلاثين بدنة ثم امر علياً فنحر ما بقي منها . وقال له اقسم لحومها وجلودها وحلالها بين الناس ولا تعط

جزاراً منها شيئاً وخذ لنا من كل بعير جذبة من لحم واجعلها في قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونحو من مرقها ففعل . واخبر رسول الله أن منى كلها منحر وان فجاج مكة كلها منحر .

اما اليوم فالناس لا ينحرون الأبل في مكة ، وانما يقربون قرابينهم من الضأن ، وقد يبلغ عدد الاضاحي بمكة في ايام النحر مئات الالوف ، هذا اذا ضحى كل واحد من الحجاج بشاة واحدة ، فكيف اذا ضحى بأكثر وفيهم من يضحوا بعشرة فما فوق ، ولا يخفى ان عدد الحجاج في عصرنا هذا يتراوح كل عام بين مأة الف وخمسمائة الف ، وكذلك كانوا في العصور السالفة بعدما انتشر الاسلام في اقطار الارض ، ودخل فيه غير العرب من الامم ، على ان محمد (ص) لما حج في السنة العاشرة من الهجرة حجة الوداع كان معه بعض الاقوام التي ذكرها الحلبي في سيرته مأة الف من الناس الذين حجوا في ذلك العام ، هذا والاسلام إذ ذاك لم ينتشروا في غير جزيرة العرب فكم يبلغ عددهم بعدما اصبح المسلمون في مختلف اقطار الارض ثلثمائة مليون على ما يقال .

ولقد آل الأمر في هذه الضحايا إلى ان صارت تسبب حدوث الأوبئة ، وانتشار الامراض المستولية التي تجتاح في كل عام الوفاً مؤلفة من الحجاج .

تصور بقعة من الارض ازدحمت فيها مئات الالوف من الناس وذبح فيها مئات الالوف من الاضاحي ، وتركت على حالها بعد الذبح لا يأكل منها احد إلا جزء يسيراً يأخذه الفقراء فيشرقونه ويجففونه على الصخور في الجبال تحت حرارة شمس الحجاز المحرقة فيدخرونه ويأكلونه

قديداً . ويبقى معظمها فى حرارة الشمس حتى تنتن الارض من الجيف ويفسد الهواء فتنتشر جراثيم الارض المهلكة بين الحجاج ، فكيف تكون حالة الناس فى هذه المجزرة الالهية .

ان الحكومة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد لما رأت فضاعة الامر ووخامة الحالة التي يذهب بها الالوف من الحجاج ذهاب ضحاياهم التي يضحون بها فى مكة كما انهم ينقلون معهم جراثيم تلك الارض الى بلادهم عند رجوعهم اليها ، اتخذت بعض التدابير المخففة على قدر الامكان فحصرت الذبح فى أماكن معينة بمنى فلا يجوز لأحد ان يذبح فى غيرها ثم اقامت موظفين وعمالاً يحفرون الحفائر الواسعة لدفن الاضاحي بعد ذبحها ، ومنعت الفقراء من اخذ اللحوم من بعض هـــذه الاضاحي لتشريقها وتقديدها . إذ رأت انهم بذلك يكونون واسطة لنقل الجراثيم وانتشار الامراض فى عهد الحكومة العربية السعودية ، وهي وان لم تمنع حصول الامراض بالمرة الا انها خففت وطأتها بعض الشيء .

وقد قال لي بعض الاطباء من الذين كانوا فى مكة موظفين عنـــد الحكومة العربية السعودية انه لم يبق هناك من يأخذ من لحوم هذه الاضاحى لتشريقها ، لأن الحكومة تمنع من ذلك ، سوى طائفة من السودان يقال لهم التكارنة ، وهم يسكنون فى ضواحي جدة ، فيأتون فى ايام النحر الى مكة فيسرقون من هذه اللحوم ما استطاعوا أن يسرقوا فينشرونها فوق الجبال على الصخور حتى تجف لاستخراج هذه اللحوم المقددة ، التي تنتشر بواسطتها جراثيم الامراض الفتاكة .

لا شك ان هذه الاضاحي انما شرعت لسد حاجة الفقراء فلا يجوز

ان تزيد على الحاجة فتذهب هكذا سدى ، من دون ان ينتفع احد بلحومها ولا بجلودها ، بل عدا انتفاء الانتفاع بها تحصل بها هذه الامراض الفتاكة فتكون خسارة فى الانفس والاموال ! . .

ومما يزيد فى الامر فضاعة أن بعض الاغنياء من الحجاج يغلون فى الاكثار منها وهم يرون انهم يتقربون الى الله زلفى كأن الله لا يرضيه الا إفناء هذه البهائم النافعة من دون فائدة ولا عائدة ، وقد حدثني احد الثقاة ممن جاوروا فى مكة بضع سنين انه كان يرى فى ايام النحر بعض الاغنياء من الحجاج يمشي فى منى وخلفه الجزارون بأيديهم المدى فيتجول بين القطعان المعروضة للبيع فاذا جاء الى قطيع وقف عنده واخذ يساوم صاحبه لشراء صفقة واحدة والجزارون واقفون وفى يد كل مدية ، حتى اذا تم البيع هجم الجزارون على القطيع فعاثوا فيه بالذبح وذلك الحاج الغني واقف ينظر اليهم حتى اذا استأصلوه ذبحاً ذهب الى الى قطيع آخر . وهكذا ربما ضحى بأكثر من مائتي رأس من الغنم . وكلما ذبح الجزارون قطيعاً جاء بعدهم الدفانون فيسحبون تلك الذبائح الى الحفر فيدفنوها فيها .

فهل ترى ايها القارىء جنوناً اكبر من هذا الجنون ؟ أم هل ترى جهلاً افظع من هذا الجهل ؟ أهذا هو العمل الذي يتقربون به الى الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » وتالله ان كان فى أهل الارض عمل يستوجب غضب الله فهو هذا ،

* * *

يقول بعض المتفيهقين من المسلمين الذين يدعون التجدد فى افكارهم ،

ان مكة مركز ديني أعلى للمسلمين ، وان المقصود من الحج هو اجتماعهم هنالك في كل عام للنظر في شؤونهم العامة في الحج ماهو سوى مؤتمر ديني عام يعقده المسلمون في مكة ليتذاكروا ويتشاوروا فيما تتطلبه المصلحة الاسلامية العامة من الامور التي تعود على عموم المسلمين بالصلاح والفلاح .

وهذا لعمري كلام حسن لولا ان الواقع يكذبه ، وانه ليس له ظل من الحقيقة . فان افعال الحج معلومة من الوقوف بعرفة ، والتلبية ورمي الجمار ، والطواف بالكعبة ، واستلام الحجر الاسود ، والسعي بين الصفا والمروة ، والنحر في منى ، وقد مر على المسلمين ثلاثة عشر قرناً وهم يؤدون فريضة الحج فيفعلون هذه الافعال المعلومة ، لا يزيدون فيها ولا ينقصون من عهد الرسول الى يومنا هذا ، ولم نرهم في عام من الاعوام تذاكروا وتشاوروا ولو فيما يخص الحجاج في مكة ويهيء لهم أسباب الراحة ، ويقيهم من فتك الامراض المستولية عليهم على الاقل ، ولو ان هؤلاء قالوا ان الحج يجب ان يكون بعد اداء هذه الافعال المعلومة أو قبل اوانها بشكل مؤتمر عام ينظر فيه المسلمون في شؤونهم العامة ، لكان لكلامهم معنى صحيح ، ووجه وجيه ، اما قولهم ان الحج فرض لهذه الغاية فكلام فارغ ليس له معنى بوجه من الوجوه .

* * *

لا ريب ان اهم ما في افعال الحج الوقوف بعرفة ، بل نحن اذا نظرنا الى حديث « الحج عرفة » وان من لم يدرك الوقوف بها ، لم يدرك الحج علمنا ان الوقوف بعرفة هو الاصل في الحج ، وان ماعداه ليس إلا

فرعاً ، ولم يكن لاهل الجاهلية فى يوم عرفة سوى الوقوف والتلبية ، ولكن النبي (ص) زاد على ذلك الخطبة ، فانه لما جاء الي عرفة فى حجة الوداع وذلك فى صباح اليوم التاسع من ذي الحجة امر ان يضرب له له قبة من شعر بنمرة ، فنزل في تلك القبة حتى اذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ، ثم اتى بطن الوادي فخطب وهو على راحلته ، خطبة ذكر فيها تحريم الدماء ، والاموال والاعراض ، ووضع ربا الجاهلية ، وأول دم وضعه ربا عمه العباس ، ووضع الدماء فى الجاهلية ، واول دم وضعه دم ابن عمه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، قتلته هذيل ، فقال : هو اول دم ابدأ به من دماء الجاهلية موضوع فلا يطالب به فى الاسلام ، واوصى بالنساء خيراً ، وقضى لهن بالرزق والكسوة ، بالمعروف على ازواجهن ، واباح ضربهن غير المبرح ان أتين بما لا يحل ، وأمر بالاعتصام بكتاب الله ، واخبر انه لا يضل من اعتصم به ، والخلاصة أنه تكلم فى الشؤون العامة الاسلامية .

فهلا اعتبر المسلمون بهذه الخطبة فجعلوا هناك مؤتمراً عاماً يعقدونه فى يوم عرفة أو قبله للنظر فى شؤونهم العامة من دون ان يخلوا بشيء من افعال الحج اجل انه كان على المسلمين ان يعتبروا بذلك ، وان ينتبهوا له ، ولا يضر الاسلام والمسلمين لو انهم بنوا لهم فى مكان تلك القبة التي ضربت لرسول الله داراً قوراء يأتمرون فيها قبل الوقوف بعرفة أو قبل يوم عرفة ، وجعلوا هذه الدار بحيث تتسع لاهل الرأي ولاهل الحل والعقد من الحجاج ان لم تتسع لهم اجمعين .

بل ماذا يضر الاسلام والمسلمين لو انهم بعد قدومهم مكة وبعد

طوافهم طواف القدوم ذهبوا الى عرفة قبل يوم التروية ، وقضوا تلك الايام الثمانية من ذى الحجة هناك بدلا من ان يقضوها فى مكة مشغولين بالطواف وبالسعي بين الصفا والمروة ، فعقدوا مؤتمراً فى تلك الدار فتذاكروا وتشاوروا ، وقرروا المقررات فيما ينفعهم ويصلحهم على قدر الامكان .

ان هذا لا يضر الاسلام والمسلمين ، ولا يصادم الدين ولا يمنعهم من أداء مناسك الحج كما هي ، فليقفوا بعرفة وقوفهم ، وليبلوا ما شاؤا ، وليرموا جمارهم ، ويطوفوا بالبيت ما ارادوا ، وليسعوا بين الصفا والمروة ما احبوا ، ولينحروا ما شاؤا . ولكن مع ذلك كله يعقدون هذا المؤتمر للنظر فى شؤونهم العامة ، او النظر فى امر الحج وامر الحجاج على الاقل .

* * *

انهم لو فعلوا ذلك لاستطاعوا ان يهيئوا بمكة للحجاج ما يحفظ صحتهم ويقيهم من عدوى الامراض ، ويوفر لهم اسباب الراحة ، ويسهل عليهم السفر ، ويمهد لهم السبل ذهاباً وايابا ، وبالجملة انهم لو فعلوا ذلك لاستطاعوا أن يجعلوا للحج صبغة مدنية عدا صبغته الدينية ، وان يفرغوه فى قالب يلائم روح الحضارة فى هذا العصر .

أليس فى امكان المسلمين ان ينتفعوا بهذه الاضاحي التي يضحون بها على الوجه الذي مر بيانه ؟ ... فتكون سبباً لخسارتهم في الانفس والامرال . أليس من الممكن انشاء معمل للكونسروة فى مكة لحفظ لحوم هذه الاضاحي في العلب وارسالها الى البلاد ، بدلاً من ان تذهب

سدى ، وان تكون سبباً لحصول انواع الأوبئة وانواع الامراض المستولية ، أو ليس من الممكن انشاء مدبغة في مكة لدبغ جلود هذه الاضاحي وارسالها الى الاسواق ؟ . أليس من الممكن بناء مستشفى عام للحجاج يحتوى على جميع ما تحتوي عليه مستشفيات هذا العصر ؟ ...

بلى ! كل ذلك ممكن سهل يسير على المسلمين لو انهم انتفضوا من جمودهم ، وراعوا في امور دينهم ما تقتضيه امور دنياهم ، ومشوا مع الزمان وتطوروا بأطواره ، وتروووا في الامور وافتكروا ، وتركوا ما هم عليه من الجمود الديني الذي خرجوا به عن غاية الدين حتى اصبح الدين بسببه عثرة في سبيل تقدمهم ، وحتى اصبحوا وهم لا يعرفون من الدين سوى رميهم المصلحين من المفكرين بالكفر والالحاد .

* * *

وقد كان للمسلمين وخاصة العرب منهم عذر إذ لم يفتكروا في اصلاح حالتهم من الوجهة الدينية أيام كانت الدولة دولتهم ، والحكم حكمهم ، وزمام الامر والنهي بأيديهم .

أما اليوم وقد اصبحوا وهم كلهم وخاصة العرب تحت سلطة الاجانب وتحت حكمهم مباشرة أو بالواسطة ، فلا عذر لهم عند الناس ، ولا متاب عليهم عند الله .

ولعمري لو ان المسلمين اتخذوا لهم في عرفات دار ندوة عامة كما قلنا لأصبحت لهم اليوم على الاقل بقعة حرة من الارض يجتمعون فيها احراراً ، ويفتكرون أحراراً في هذه الايام التي هم فيها ليسوا في بلادهم باحرار .

بناء المسجد

أول عمل قام به النبي (ص) بعد قدومه المدينة هو بناء المسجد، وليس المسجد كما نفهمه اليوم محلاً للعبادة فقط، بل هو محل لكل ما يتعلق بالدعوة الى الاسلام، وكل ما يهيء اسباب النهضة، ويمهد طرقها، فكما كان النبي يصلي فيه بالمسلمين الصلوات الخمس، كان يجمعهم فيه كلما عنى خطب وعرض له امر، فيقوم فيهم خطيباً، وذلك يوم الجمعة الذي هو يوم اجتماع عام، والصلاة فيه لا تكون الا مقرونة بخطبة فالمسجد باعتبار هذا يكون درجة للخطابة في الاجتماعات العامة التي تدعو اليها الحاجة.

وكان يجلس فيه للقضاء وفصل المخاصمات بين المسلمين، فكان يترافع اليه فيه أهل الخصومات فيقضي بينهم في المسجد. فبهذا الاعتبار يكون داراً للقضاء أو محكمة كما يقال اليوم.

وكان في المسجد يرتب السرايا، ويبعث البعوث، ويعقد الالوية لمن يؤمرهم عليها فهو بهذا الاعتبار دار امارة.

وكانوا يأتون بالغنائم والاسرى، وبالسبايا في المسجد، فيقسمها عليهم بعد ان يأخذ الخمس لله ولرسوله، فهو بهذا الاعتبار ثكنة عسكرية.

وقد جعل فيه صفة يأوي اليها من لا مأوى له من المساكين، وفقراء المسلمين فهو بهذا الاعتبار ملجأ للفقراء والمساكين.

وكان يجلس فيه اصحابه يحدثهم ويحدثونه، كما يجلس فيه أصحابه

بعضهم الى بعض فيكون باعتباره هذا ناديا .

وكان تجبى اليه اموال الصدقة فتخزن فيه ان كانت عيناً فهو بهذا الاعتبار بيت مال .

وكما يكتب فيه الوحى المنزل ، كانت تكتب فيه الكتب الى الملوك وغيرهم فهو بهذا الاعتبار ديوان رسائل ،

وكانت تقام فيه الحدود ، كالجلد ، والقطع ، والرجم ، كما تدل على ذلك قصة الغامدية التي اعترفت بالزنا ، واستدل ابن القيم بذلك على جواز اقامة الحدود في المصلى ، فهو بهذا الاعتبار دار عقوبة .

وكان يجلس فيه للوفود ، ويجهزهم بالعطايا ، فهو بهذا الاعتبار بلاط ملوكي .

والخلاصة هي كما قلنا آنفاً ، أن المسجد محل عام للصلاة وغيرها من الامور المتعلقة بالدعوة والممهدة لطريق النهضة .

اقتران الدعوة باليسف

كان محمد (ص) في مكة هو واصحابه مستضعفين ، لاقوة لهم على خصومهم ، من كفار قريش ، ولذا كان يدعو الناس الى الاسلام بالوعظ والانذار ، عن طريق المسالمة كما جاء في القرآن : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » فهذه الآيات كانت شعار الدعوة في مكة ، ولكنه لما هاجر الى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى قويت شوكته ، واشتد جناحه بالانصار الذين بايعوه ، والمهاجرين الذين تابعوه ، وعندئذ قرن دعوته بالسيف ليقاتل خصوم دعوته من الكافرين . الا انه جرياً على دينه في جميع امور الدعوة تدرج في امر القتال تدرجاً منطقياً على قدر ما عنده من قوة حربية .

فأول آية نزلت في القتال في المدينة هي : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » . فهذه الآية تظمنت أمرين احدهما الاذن بالقتال أي جعله مباحاً لهم من غير ان يفرض عليهم فرضاً ، والثاني ان الاذن لهم بالقتال انما هو بسبب انهم ظلموا وأُخرجوا من ديارهم بغير حق ، فسياق الآية يدل على ان المأذون لهم بالقتال هم المهاجرون لا الانصار ، لانهم لم يظلموا ولم يخرجوا من ديارهم .

على انه لا حاجة هناك الى الاذن بالقتال للانصار لأنهم يقاتلون بحكم البيعة التي بايعوا بها محمداً على ان يحموه وينصروه ، ويجوز ان يكون الاذن عاماً للمهاجرين والانصار وان كان سببه خاصاً بالمهاجرين.

هذه اول خطوة خطاها محمد فى أمر القتال ، ثم انه تقدم فيه خطوة اخرى فجعله الله فرضاً على المسلمين ، ولكن لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم إذ قال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » وهذه هي الحرب الدفاعية ، واستمر الحال على ذلك الى السنة الثامنة من الهجرة ، حتى حصل لمحمد من القوة والشوكة ما استطاع به ان يعين الحرب الهجومية العامة ، وبذلك نزلت سورة براءة التي نبذ فيها الى المشركين عهودهم ، وبرأ منهم ، وامهلهم اربعة اشهر وهي الاشهر الحرم ، واعلمهم انه واياهم فى حالة حرب مستمرة فيما عدا هذه الاشهر الاربعة ، وكان ذلك سنة ثمان وقيل سنة تسع للهجرة .

فعلى هذا يكون للقتال فى هذا التدرج أربعة احكام ، الاول انه محرم ، وذلك فى اول الامر حين كان محمد بمكة ، الثاني انه مأذون به اي مباح ، وذلك فى اول الهجرة فى المدينة ، الثالث انه مأمور به أي مفروض على المسلمين لمن بدأهم بالقتال ، وهذا لم اعثر فيما بين يدي من الكتب على تعيين زمانه بالضبط ، الا انه ليس بين هذا وبين ما قبله زمان طويل على ما أظن ، الرابع انه مأمور به ، أي فرض على المسلمين لجميع المشركين وان لم يبدؤهم بالقتال فى غير الاشهر الحرم ، وذلك فى سنة ثمان وقيل سنة تسع ... ... »

لا اله الا الله

مرّ على البشر دهر كانوا فيه مستعبدين ، يعيشون بين رب ومربوب ، وكان الرب الواحد منهم في نعيم والالوف من المربوبين في شقاء ، وكان الارباب فيهم كثيرين ، على درجات مختلفة ، اما المربوبون فهم السواد الاعظم الذي يكد ويشقى لنعيم الارباب ، وكان المربوبون يعملون لهم ويعبدونهم ، خوفاً وطمعاً ، وقد اشار القرآن الى هذه الحالة بآية من آياته اذ قال :

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

اما القوة التي كان الارباب يستعبدون بها المربوبين فهي اما مادية ، كالقوة البدنية ، وما يتبعها من سلاح واعوان ، واما أدبية كالدين وما يتبعه من رؤساء وكهان ، وقد تكون هاتان القوتان احداهما عوناً للآخر ، وقد تجتمعان في شخص واحد . وخلاصة القول ان هاتين القوتين كانتا منذ عرف التاريخ الى يومنا هذا هما الواسطة لاستعباد البشر بعضهم بعضاً .

لا شك ان هـــذه الحالة التي لا تعرف للمجتمع حقوقاً غير حقوق الارباب . . محتاجة الى الاصلاح ، وان خير ضامن لاصلاحها ما جاء به محمد (ص) من كلمة التوحيد وهي « لا إله إلا الله » التي لم يسبق اليها على ما أرى ، لأن « يهوا » إله اليهود وان كان واحداً الا انه ليس بإله

عام بل هو إله اسرائيل فقط .. اما الاله الاعظم العام الشامل المهيمن على جميع المخلوقات فهو الله الذي عرفه ووحده محمد (ص) لا غير ، فهو اذن بهذا المعنى من تصوراته التي لم يسبقه أحد اليها .

قد يقال ان العرب فى جاهليتهم قبل محمد كانوا يعرفون الله بهذا المعنى ، أنه إله عام خالق لجميع المخلوقات « ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله » .

فأقول نعم ! ولكنهم لا يوحدونه بل يجعلون لهم شركاء فلم تنتف عنهم العبودية لغيره من أصنام وغير اصنام .

واذا تأملنا جيداً في معنى « لا إله إلا الله » وجدنا كل ما فيها انها ترتقى بالناس ، من طور أدنى ، الى طور اعلى ، إذ تخرجهم من طور عبودية عامة ، الى طور عبودية خاصة أي انهـــا تجعل الناس كلهم مستعبدين لاله واحد ، لا شريك له ، هو خالق الكائنات ، فالمنفعة المترتبة على كلمة التوحيد هي للناس لا لله ، لأنهم تحررهم من العبودية لغير الله فنفعها لا يعود إلا اليهم ، وفائدتها لا تكون الا لهم ، والا فان الله لا يضره ان يعبد الناس غيره ، كما لا ينفعه ان يعبدوه دون سواه « ان الله غني عن العالمين » .

غاية محمد

ان الغاية التي يرمي اليها محمد من الدعوة الى الله أو من النبوة ليست بدينية محضة دليل .. انه قبل الجزيه من غير العرب من اهل الكتاب والمجوس ، إذ لا ريب ان اخذ الجزية منهم وتركهم على ماهم عليه من الكفر والضلال ، ينافي انه لم يرسل الا لدعوة الناس كافة الى التوحيد ، أي الى عبادة الله وحده لا شريك له .

فان قلت ان اهل الكتاب هم اهل دين جاءهم به الرسل من الله فدعوتهم الى الاسلام .. انما هي دعوة اصلاحية ، بخلاف دعوة المشركين فانها انقاذية ، فلذا قبل من أولئك الجزية ، ولم يقبلها من هؤلاء .

قلت : اما المجوس ، فمحمد (ص) لا يعترف لهم بأنهم أهل دين سماوي" فهم والمشركون سواء في نظره ، واما اهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم وان كانوا أهل دين سماوي" معترف به ، الا انهم في رأى محمد (ص) قد حرفوه ، وغيروه ، وبدلوه ، حتى اصبح الدين الذين هم عليه غير كاف لنجاتهم من عذاب الله فهم كالمشركين ، يعذبون في جهنم خالدين ، كما نطقت به آيات القرآن ، فلأجل هـذا يجب ان تكون دعوتهم انقاذية ايضاً لا اصلاحية ،

وأيضاً ان النصارى منهم من يجعل المسيح إلهاً على ما جاء في القرآن ومنهم من يجعله ابن الله ، وكذلك اليهود . يقولون عزير ابن الله ، فلا فرق اذن بينهم وبين مشركي العرب ، إذ لا فرق بين شرك وشرك ، بل الشرك شرك كيفما كان ، سواء اشركوا بالله رجلاً ام اشركوا به صنماً ،

أو شجرة ، أو كوكباً ، أو غير ذلك .

فقبول الجزية من هؤلاء ، دون مشركي العرب ، يدل دلالة واضحة على ان الغاية ليست بدينية محضة ، وانما الغاية التي يرمي اليها محمد (ص) هي احداث نهضة عربية ، دينية اجتماعية سياسية ، تكون عربية المبدأ عالمية المنتهى ، اي يقوم بها العرب في بدء الامر ، ثم تعم وتشمل الناس جميعاً في النهاية .

* * *

ولا شك ان مثل هذه النهضة تحتاج في سيرها وتكاملها ، الى المال ، ففتح لهم هذا المورد المالي ، بأخذ الجزية من غير العرب ، على ان يكون هؤلاء الذين يؤدونها ، مع بقائهم على كفرهم أهل عهد وذمة ، تحت حماية العرب .

وقد اشار ابو العلاء المعري في لزومياته الى هذه الجزية بقوله :

المال يسكت عن حق وينطق في ... بطل وتجمع اكراماً له الشيع
وجزية القوم صدت عنهم فغدت ... مساجد القوم مقروناً بها البيع

* * *

ولما كانت هذه النهضة عربية ، أي يقوم بها العرب دون غيرهم ، وكان العرب كلهم ، او اكثرهم مشركين وثنيين وكانوا مع ذلك متخالفين متخاذلين ، يأكل بعضهم بعضاً . كان من الضروري لمحمد (ص) ان يجمع كلمتهم قبل كل شيء ، فيكون فيهم وحدة دينية ويربطهم برابطة الاخاء الديني ، وكذلك فعل اذ انكر عليهم عبادة الاصنام ، وشنع بها كل تشنيع ، وتفنن في ابطالها وتفنيدها بما هو مسطور في القرآن ودعاهم

بكلمة التوحيد « لا إله الا الله » الى عبادة الله وحده لا شريك له .

وكان في اول الامر مكتفياً في دعوتهم بالآيات القرآنية ، اذ لم تكن له قوة يستند اليها في ارغامهم على قبول ما يدعوهم اليه .

وقد قاسى ما قاسى من عداوة قومه المشركين ، ولقي منهم اذى كثيراً هو واتباعه القليلون المستضعفون ، ولكنه بعد الهجرة الى المدينة حصلت له تلك القوة فصار يدعوهم ، وفي احدى يديه القرآن ، وفي الاخرى السيف ، فلا يرعى لهم إلا ولا ذمة ، ولا يقبل منهم عذراً ولا جزية إلا الاسلام ، فكان يدعوهم اليه فان اسلموا فبها وإلا سل عليهم السيف فلا يغمده حتى يسلموا .

واذا علمت ماذا يريد محمد (ص) من وراء دعوتهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، علمت سبب تشدده في تشنيعه عليهم وتثنيتهم ، وتشديده عليهم انكار الشرك بالله حتى جعله من الذنوب التي لا تغتفر إذ قال تعالى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » مع انه في الحقيقة ليس كذلك ، لأن الشرك بالله لا يضر الله شيئاً كما انه لا يضر الناس مضرة مادية ، ولو كان الشرك بالله يضر الناس مضرة مادية لهلك اليوم الذين اعادوا الوثنية جذعة بعبادتهم أهل القبور ..... فان الوثنية التي حاربها محمد بسيفه وقرآنه قد عادت بجميع طواغيتها على شكل اشنع وافظع مما كانت عليه في الجاهلية ، ومع ذلك ترى هؤلاء يسرحون ويمرحون كما لو كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له .

ان محمداً يعرف هذه الحقيقة جيداً ، ولكن كما قلنا ان سبب تشدد القرآن في انكار الشرك الى هذا الحد هو ما يريد من جمع كلمتهم ،

وتكوين وحدة دينية فيهم لكي ينهض بهم نهضة كبرى تكون عاقبتها الخير للناس اجمعين .

ولما كانت الوحدة الدينية وحدها مجردة من المرغبات المادية والمعنوية لا تكفي لانهاضهم النهضة المطلوبة ، جعل لها من المرغبات المعنوية « الجنة » التي تنال بالاعمال الصالحة ، وجعل افضل الاعمال الصالحة الشهادة أى الموت في سبيل النهضة ، او في سبيل الله .

ولم يعتبر الشهيد المقتول في سبيل الله ميتاً ، بل جعله حياً يرزق إذ قال : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون » .

وجعل لنهضتهم من المرغبات المادية ، ان أحل لهم الغنائم ، والنساء السبايا في الحرب ، وزاد ان ضرب لهم الجزية على غيرهم من أهل الاديان ولم تكن الغنائم في الاديان السابقة حلالاً ، فكان من خصائصه ان أحلت له الغنائم كما يدعيه كتاب السيرة النبوية ،

والذي نراه ان أخذ الغنائم والسبايا من عادة العرب فى الجاهلية ، فانهم كانوا فى حروبهم اذا أغار بعضهم على بعض استاقوا الانعام التي هي جل اموالهم واخذوا النساء سبايا .

* * *

واذا علمت ان هذه المرغبات المادية والمعنوية ، وعلمت ان العرب كانو بطبيعة بلادهم القاحلة يعيشون فى ضنك من العيش محرومين من نعيم الحضارة كل حرمان ، وعلمت ايضاً انهم كانوا ببداوتهم من أشد الناس بأساً ، واشدهم فى الحروب شجاعة واقداماً ، فقد انكشف لك

سر الموفقيات والفتوح التي جنوها من نهضتهم الاسلامية المحمدية .

شجاعة واقدام ، مع شظف في العيش حصلت بعدها وحدة فى القوم جعلتهم جسماً واحداً ، ثم انفتحت لهم ابواب الجنان من جهة ، وتكدست امامهم غنائم الحرب من جهة اخرى ، فأي عجب . يبقى بعد هذا من ان نراهم قد دوخوا البلاد من اقصى الشرق الى اقصى الغرب فى مدة لا تزيد على الثلاثين سنة .

دع الناس يختلقون المعجزات لمحمد ، وانظر الى هذه النهضة وآثارها الباهرة ، فانها معجزة المعجزات التي لم يسبق لها نظير فى البشر منذ عرف التاريخ الى يومنا هذا ! . . .

* * *

وكيف ينكر علينا منكر ما قلناه ، من ان الغاية التي كان يرمي اليها محمد هي هذه ، وقد صرح هو نفسه بها عدة مرات .

فقد جاء فى سيرة ابن هشام ، وفى السيرة الحلبية ، ما خلاصته : لما مرض ابو طالب مرض وفاته ، أتاه الملأ من قريش ، وطلبوا منه ان يكلم محمداً (ص) فى ان يتركهم وآلهتهم ، ويتركوه هم وشأنه فدعاه أبو طالب وكلمه فى ذلك ، فقال محمد « أرأيتكم ان أعطيتكم ما سألتم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون فيها العرب وتدين لكم بها العجم » .

وهذا صريح من انه يريد لهم الملك على العرب ، وان العجم تطيعهم وتخضع لهم فتكون من رعاياهم وذلك ليس من الدين لان غاية الدين هي عبادة الله وحده لا شريك له .

* * *

وقد صرح بغايته لسراقة بن مالك المدلجي ، ففي السيرة الحلبية ما خلاصته : لما خرج محمد من مكة مهاجراً الى المدينة هو وابو بكر جعلت قريش لمن قتلهما أو اسرهما مأتي ناقة . . وارسلت بذلك الاخبار الى اهل النواحل فخرج في طلبها سراقة بن مالك فأدركهما ، ولكن الله عصمهما منه ، حتى ان سراقة قال : يا محمد اني لأعلم انه سيظهر أمرك في العالم ، وتملك رقاب الناس فعاهدني اني اذا أتيتك يوم ملكك فأكرمني ، وطلب اليه ان يكتب له كتاب أمان فأمر عامر بن فهيرة مولى ابي بكر وكان معهما فكتب له كتاب أمن ، ولما اراد سراقة الانصراف قال له « محمد » « كيف بك يا سراقة اذا تسورت بسواري كسرى ، قال كسرى بن هرمز قال نعم »

وهذا صريح في انه يريد من وراء الدعوة الى الله ، فتح بلاد فارس واغتنام أموال كسرى حتى سواريه ، فيأخذهما سراقة ويتسور بهما

وقد صرح بغايته يوم الخندق ، ففي السيرة الحلبية ، وكذا في سيرة بن هشام عن سلمان الفارسي قال : « ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليّ ، ورسول الله قريب مني ، فلما رآني اضرب ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ثم ضرب به اخرى فلمعت تحته برقة اخرى ثم ضرب به ثالثة فلمعت برقة اخرى فقلت بأبي انت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيته يلمع تحت المعول وانت تضرب قال أوقد رأيت ذلك يا سلمان ؟ .. قلت نعم . قال اما الاولى فان الله فتح عليّ بها اليمن ، واما الثانية فان الله فتح عليّ بها الشام والمغرب ، واما الثالثة فان الله فتح بها المشرق ، وفي راوية

اخرى أنه لما اشتدت تلك الكدية على سلمان ، أخذ رسول الله المعول من سلمان وقال بسم الله وضرب ضربة فكسر ثلثها وبرقت برقة فكبر رسول الله وقال : اعطيت مفاتيح اليمن اني لأبصر صنعاء من مكاني الساعة كأنها انياب الكلاب ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فخرج نور من قبل الروم فكبّر رسول الله وقال اعطيت مفاتيح الشام ، والله اني لابصر قصورها الحمر ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر ، وبرقت برقة فكبر وقال اعطيت مفاتيح فارس والله اني لابصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها انياب الكلاب فى مكاني هذا ، وفى رواية اني لأبصر قصر المدائن الابيض الآن وجعل يصف لسلمان اما كن فارس ويقول سلمان صدقت يا رسول الله هذه صفتها أشهد انك رسول الله ثم قال رسول الله « هذه فتوح يفتحها الله بعدى يا سلمان » .

* * *

ولما قال سلمان ما قال يوم الخندق ، وشاع ذلك بين الصحابة ، قال جمع من المنافقين منهم معتب بن قشير : الا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وانه تفتح لكم ، وانتم انما تحفرون الخندق من الغرق اي الخوف لا تستطيعون ان تبرزوا . فنزلت الآية « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » وفى رواية اخرى ان سبب نزول هذه الآية غير ذلك ، وهو ان محمداً لما فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم فقال المنافقون واليهود : هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، وهم اعز

وامنع من ذلك فنزلت الآية .

وقد صرح بغايته على وجه آخر لعدى بن حاتم لما وفد عليه من الشام ، في سيرة ابن هشام والسيرة الحلبية ما خلاصته :

ان عدى بن حاتم لما غشيته خيل محمد فر هارباً الى الشام ، وكان على دين النصرانية ، او على دين الركوسية . وهي دين بين النصرانية والصائبة ، وكان شريفاً يسير فى قومه بالمرباع أى يأخذ ربع الغنيمة ، كما هو شأن الاشراف من اخذهم فى الجاهلية ربع الغنيمة ، وكانت خيل محمد قد اخذت اخته فى السبايا ، غير ان محمداً منّ عليها فأطلقها واكرمها فذهبت الى اخيها عدى فى الشام ، فحرضته على اللحوق بمحمد فخرج الى المدينة وافداً ، وهنا نترك الكلام له لأن الرواية عنه قال :

فخرجت حتى جئته أي محمداً ، بالمدينة فدخلت عليه فقال من الرجل فقلت عدى بن حاتم ، فقام رسول الله وانطلق بي الى بيته ، فوالله انه لقائدني اليه إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه عن حاجتها فقلت ما هو بملك ، ثم مضى حتى دخل بيته ، تناول وسادة بيده من أدم محشوة ليفاً ، فقدمها لي وقال اجلس على هذه فقلت بل انت فاجلس عليها قال بل انت فجلست عليها وجلس رسول الله بالارض فقلت والله ما هذا بأمر ملك ثم قال لي يا عدى بن حاتم أسلم تسلم ، قالها ثلاثاً ، فقلت : اني على دين ، قال انا أعلم بدينك منك ، فقلت انت اعلم بديني قال نعم ألست من الركوسية ؟ الست من القوم الذين لهم دين ؟ .. فقلت بلى فقال ألم تكن تسير في قومك بالمرباع قلت بلى قال فان ذلك لم يكن سيحل لك فى دينك ، فقلت اجل والله وعرفت انه نبي مرسل

يعلم ما يجهل . ثم قال لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ماترى ؟! وتقول انما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، وقدرة العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه ماترى من كثرة عددهم وقلة عددهم ، أتعرف الحيرة ؟ . قلت لم ارها وقد سمعت بها ، قال : فوالله ليتمنّ هذا الامر حتى تخرج الظعينة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، وفي رواية ليوشكن ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف ، ولعلك انما يمنعك من الدخول فيه انك ترى ان الملك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت عليهم ، قال عدى : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج البيت ، وأيم الله لتكون الثانيه ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه .

* * *

لا شك ان في قوله « ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه » اشارة الى ما سيفتحون ويملكون من البلاد التي تدر عليهم بخراجها وجزيتها ، عدا الغنائم .

ومن تصريحاته ما قاله لوفد بني عذرة قبيلة باليمن ، وكان عذره اخا قصي لأمه ، وهو الذى اعان قصياً على أخذه ولاية الكعبة من خزاعة.

ففي السيرة الحلبية أنه وفد على رسول الله اثنا عشر رجلاً من بني عذرة ، وسلموا بسلام الجاهلية ، فقال لهم رسول الله من القوم فقال قائلهم : من بني عذرة نحن الذين عضدوا قصياً ، وازاحوا من بطن

مكة خزاعة وبني بكر فلنا قرابات وارحام ، فقال رسول الله : مرحباً بكم واهلاً فاستأنسوا ولا تستوحشوا ، ما اعرفني بكم . ثم قال لهم : فما يمنعكم من تحية الاسلام قالوا : يا محمد كنا على ما كان عليه آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا . وقالوا إلام تدعو ؟ ... فقال : ادعو الى عبادة الله وحده لا شريك له وان تشهدوا اني رسول الله الى الناس كافة فقال متكلمهم : فما وراء ذلك فقال الصلوات الخمس ، تحسن ظهورهن ، وتصليهن لمواقيتهن ، فانه افضل العمل ، ثم ذكر لهم باقي الفرائض من الصيام والزكاة والحج ، فأسلموا ، وبشرهم رسول الله بفتح الشام عليهم ، وهرب هرقل الى ممتنع بلاده ، ثم انصرفوا وقد اجيزوا وكسا رسول الله احدهم برداء .

المرحوم الرصافي وهو في دور شبابه وفي عهد تحصيله العلمي

حب قريشاً

قلنا فيما تقدم ان الغاية التي ينزع اليها محمد ليست بدينية محضة ، بل يريد ان يحدث نهضة كبرى ، او موجة عربية كبرى تكون اجتماعية سياسية ، يقوم بها العرب فى بدء الأمر ، على ان تكون لهم السيادة فيها على غيرهم من الناس ، ثم يكون نفعها عاماً شاملاً للناس اجمعين ، وقد مر بك قوله للملأ من قريش عند ابي طالب لما حضرته الوفاة « اعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » والمخاطب فى قوله « تملكون » هم الملأ من قريش . واذا جاز الاعتماد على ما جاء فى كتب القوم من الاحاديث المأثورة قلنا انه كان يريد فى نهضته بالعرب ان يكون الملك والسلطان من ورائها لقريش مباشرة وللعرب بواسطة قريش .

* * *

أما الأدلة على جعله الملك لقريش فلنذكر لك ما تيسر منها ، فمن ذلك قول محمد : « الأئمة من قريش » وقوله « قريش ولاة هذا الامر » وقوله « قريش امانة » . ورواه بعضهم أهل أمانة بالنون وهو من تحريف الرواة قال الطووى : قريش أهل امانة هكذا قرأه علينا المزنى بالنون ، وانما هو أهل امامة بالميم والامامة هي الخلافة ، والامام الاعظم عند المسلمين هو الخليفة ، وقد جمع الحافظ بن حجر طرق هذا الحديث أعنى « الأئمة من قريش » فى كتاب سماه لذة العيش فى طرق حديث الأئمة من قريش .

* * *

وكان محمد يحب قومه قريش ، ويفضلهم على غيرهم من العرب ، حتى انه لم يكتف بتفضيل خيارهم على خيار الناس ، بل جعل شرارهم خيار شرار الناس .

ففي السيرة الحلبية قال : رأيت فى كتاب السنن المأثورة عن إمامنا الشافعي ما رواه المزنى عنه ـ « ان خيار قريش خيار الناس وشرار قريش خيار شرار الناس » وعن الشافعي ايضاً : ان قتادة بن النعمان وقع فى قريش وكأنه نال منهم فقال رسول الله : « مهلاً يا قتادة لا تشتم قريشاً فانك لعلك ترى منهم رجالاً اذا رأيتهم عجبت منهم لولا ان تطغى قريش لاخبرتها بالذى لها عند الله » .

ومن حبه لقريش ، وايثاره لبني هاشم ما جاء فى كتب السير من انه لما التقى الجمعان يوم بدر ، وتهيأ كل من الفريقين للقتال ارسل اليهم عمر ابن الخطاب يقول : ارجعوا فانه ان يلي هذا الامر مني غيركم أحب ألي من أن تلوه مني ، فقال حكيم بن حزام قد عرض نصفاً فاقبلوه فوالله لا تنصرون عليه بعدما عرض من النصف ، فقال ابو جهل : والله لا أرجع بعد ان مكننا الله منهم .

والنصف فى قول حكيم بن حزام اسم بمعنى الانصاف ، فطلب محمد منهم الرجوع ، وقوله لهم : ان يلي هذا الامر مني غيركم احب الي من ان تلوه مني صريح ، فى انه لا يحب ان يصيب قريشاً بمكروه .

ومن هـــذا القبيل ما وقع يوم بدر أيضاً ، وذلك ماجاء فى السيرة الحلبية من أن عتبة بن ربيعة لما خرج بين اخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من النصف ، ودعا المسلمين للمبارزة خرج اليه فتية من الانصار

ثلاثة اخوة أشقاء هم : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء ، فعلى رواية أبي كفار قريش أن يبارزوهم ، وقالوا لهم من انتم ؟ قالوا رهط من الانصار : قالوا ما لنا بكم من حاجة اكفاء كرام انما نريد قومنا .

وفي رواية اخرى ، ان محمداً كره أن تكون الشوكة لغير بني عمه وقومه في اول قتال ولذلك أمرهم بالرجوع فرجعوا ، وقال : قوموا يا بني هاشم وقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم إذ جاءوا ببطلانهم ليطفؤا نور الله ، قم يا عبيدة بن الحارث قم يا حمزة قم يا علي فقاموا .

ففي الرواية الثانية صراحة من انه يجب ان يكون النصر لقريش دون غيرهم ، وفي قوله « بحقكم » إشارة الى انه انما يأمرهم بالقتال ليكون الامر لهم في العاقبة ، وحقاً من حقوقهم ، والا لم يقل لهم بحقكم بل بحق الله لأن هذا القتال انما هو في سبيل الدعوة الى الله .

* * *

ومن حبه لقريش عامة ولذوى قرابته الادنين من بني هاشم خاصة ، ما وقع يوم بدر أيضاً ، وذلك كما في السيرة الحلبية :

لما وضع المسلمون ايديهم في كفار قريش يقتلون ويأسرون قال محمد لأصحابه : انكم قد عرفتم ان رجالاً من بني هاشم قد خرجوا مكرهين لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم احداً من بني هاشم فلا يقتله ، ونص على العباس بن عبد المطلب ، اي صرح باسمه ونهى عن قتله فلما سمع ذلك أبو حذيفة بن عتبة ، وكان من المسلمين ، وكان أبوه عتبة واخوه الوليد وعمه شيبة قد قتلوا في اول مبارزة وقعت يوم بدر قال : أيقتل آباؤنا واخواننا وعشيرتنا ويترك العباس لئن لقيته لألجمنه السيف ، فبلغت

مقالته هذه رسول الله ، فقال لعمر يا أبا حفص أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ . قال عمر والله انه لأول يوم كناني فيه رسول الله بأبي حفص وقال : يا رسول الله دعني اضرب عنقه بالسيف يعني ابا حذيفة فوالله لقد نافق .

لا ريب ان محمداً انما كنى عمر في تلك الساعة بأبي حفص ليثير نخوته في حماية العباس من القتل ، لأن العباس كان مسلماً ، ومحمد يعرف إسلامه ، إلا انه كان يخفي اسلامه لأنه كان صاحب استخبارات محمد في مكة فالعباس في مكة كان ينافق في كفره كمن كان ينافق في اسلامه من أهل المدينة في المدينة ، حتى ان العباس اراد ان يهاجر الى المدينة فمنعه محمد ، لان بقاءه في مكة مخفياً اسلامه ، متظاهراً بالكفر كان اكثر فائدة لمحمد من مجيئه مهاجراً الى المدينة .

* * *

ومما يدل على حب محمد لقريش ، ما قاله لقتادة يوم أحد ، وذلك ان قريشاً مثلوا بقتلى المسلمين ، فلما رأى ذلك ابو قتادة الانصاري أراد التمثيل بقريش فقال له محمد : « يا ابا قتادة ان قريشاً أهل امانة من بغاهم العوائر اكبه الله الى فيه ، وعسى ان طالت بك مدة ان تحقر عملك في اعمالهم وفعالك مع فعالهم لولا ان تبطر قريش لاخبرتها بما لها عند الله » فقال أبو قتادة : والله يا رسول الله ما غضبت إلا لله ولرسوله ، فقال : صدقت بئس القوم كانوا لنبيهم .

ومن ذلك خبر ثمامة بن اثال الحنفي في سيرة ابن هشام ان ثمامة هذا لما اسلم خرج معتمراً الى مكة فلما قدمها قال كفار قريش أصبوت يا ثمام

فقال : لا ولـكني اتبعت خير الدين دين محمد ولا والله لا تصل اليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله .

وكانت مكة تأتيها الميرة من اليمامة ، ثم ان ثمامة لما ذهب الى اليمامة منع ان تحمل الميرة الى مكة ، فـكتب اهل مكة الى محمد انك تأمر بصلة الرحم ، وانك قد قطعت ارحامنا ، وقـد قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فـكتب محمد الى ثمامة ان يخلي بينهم وبين حمل الميرة .

هذا مع انه كان واياهم فى حالة حرب تجيز له ان يمنع عنهم الميرة ، ولـكنه لم يمنعها عنهم رأفة بهم وعطفاً عليهم .

ولو ان محمداً استعمل عشر هذا العطف وهذه الرأفة مع يهود بني قريضة وبني النضير ويهود خيبر لما استأصلهم قتلاً وتشريداً مع ان هؤلاء كقريش فى عداوتهم له .

على اننا اذا حكمنا بانصاف قلنا : ان محمداً معذور فى معاملة هؤلاء اليهود دون قريش لانه يعلم ان اليهود اعداؤه الى الابد ، فلا يأمل ايمانهم به ولا يرجو انقلابهم اليه ، بخلاف قريش فانهم قومه ، فان عادوه فان عداوتهم ناشئة عن جهل لا عن حسد ، ومهما تمادوا فى عداوته فلا بد من ان يأتي يوم يعرفون فيه ما يريده لهم من الخير والاصلاح ، فيؤمنون به ، وينقلبون اليه ، ولذا كان يدعو الله فيقول « رب إهد قومي فانهم لا يعلمون » أي لا يعلمون ما أريده لهم من الخير .

على ان محمداً مهما كانت دعوته عالمية انسانية تشمل الناس اجمعين فاننا لا نستطيع ان نجرده من العاطفة القومية خصوصاً اذا كانت دعوته لا تتم إلا بانهاض قومه العرب عامة وقريش خاصة ، ولذا وردت عنه

احاديث في تفضيل قومه قريش ، وفى تفضيل العرب على غيرهم من الامم فهذه الاحاديث كلها يجب ان تحمل على ما يريد من التوصل بهـــا الى انهاضهم لتتم بهم الدعوة ، والا فهو الذي نهاهم عن الفخر بالآباء وقال لهم: كلكم لآدم وآدم من تراب .

* * *

فان قلت ان استئثاره بالملك لقومه فى قوله « الائمة من قريش » ينافى ما يقال من ان دعوته كانت عامة عالمية قلت :

ان كون دعوته عامة عالمية ثابت بجعله الاخوة والمساواة عامتين شاملتين لكل من دخل فى الاسلام من اي جنس كان ، والى أي قوم انتسب إذ قال : « انما المؤمنون اخوة » وقال : « المسلمون يد على من سواهم تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم » وقال « كلكم لآدم وآدم من تراب » وقال « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » فهاتان الاخوة والمساواة العامتان الشاملتان لجميع المسلمين لا تنتقضان بكون الملك خاصاً لقومه ، بل تتأيدان وتتوكدان لأن الائمة يكونون أئمة لتنفيذ احكام الدعوة ليس إلا ومن جملة احكامها الاخوة والمساواة ، فلا منافاة بين كون الدعوة عامة عالمية ، وبين كون الائمة من قريش .

فان قلت لم آثر قومه بتنفيذ أحكام الدعوة ؟ قلت لان الدعوة انما قامت وتمت بسيوفهم ودمائهم فكان من حقهم ان يكونوا هم المهيمنين على احكامها ، على ان عبارة « الائمة من قريش » لا تدل على الحصر ، بل على نوع من الترجيح فقد يجوز ان يكون الائمة من غير قريش على المرجوح لا على الراجح .

* * *

ومما يدل على حبه لقريش ، وانه يريد لهم العز ما قاله لابي سفيان يوم دخل مكة فاتحاً ، وذلك انه امر عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان فيقف به عند مدخل مكة في مضيق الوادي ليرى جيوش اليمن عند دخولها مكة ، وكان سعد بن عبادة الانصاري معه حاملاً راية رسول الله على الانصار ، فلما مر سعد على ابي سفيان وهو واقف بمضيق الوادي قال أبو سفيان للعباس من هؤلاء قال هؤلاء الانصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية فلما حاذاه سعد قال : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة ، اليوم اذل الله قريشاً ، ثم مر سعد واقبل رسول الله فلما مر بأبي سفيان قال له : يا رسول الله امرت بقتل قومك فانه زعم سعد ومن معه حين مر بنا انه قاتلنا فانه قال اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة اليوم اذل الله قريشاً انشدك الله في قومك فأنت أبر الناس وارحمهم وأوصلهم ، فقال رسول الله : يا أبا سفيان كذب سعد . اليوم يوم المرحمة أعز الله فيه قريشاً .

* * *

فلما عرف التاريخ رجلاً لقى الأذى والمشقة ما لقيه محمد في اصلاح قومه ، نعم قتل كثير من المصلحين في سبيل اصلاح الناس ولكن القتل دون هذا . لان القتل عذاب ساعة وهذا عذاب مستمر ، ومع ذلك نرى محمداً لا يريد لقومه إلا العز ، وقد عفا عنهم لما امكنه الله منهم يوم فتح مكة .

ومما ذكرناه كفاية لأولي الالباب .

صورة فريدة أهداها المرحوم الرصافي الى الاستاذ سعيد البدري
جامع هذه الرسالة

حزم محمد

الحزم هو ضبط الامور والاخذ فيها بالثقة ، وان لا يقوم الانسان على امر إلا بعد التثبت فيه ، والاستيثاق منه ، وان لا يدخل حتى يعرف كيف يكون المخرج ، وقد كان محمد من الحزم على جانب عظيم ، كان جد حازم ، واكبر دليل على انه لا يترك المشاورة فى الامور كما قالت عنه عائشة : « ما رأيت رجلاً اكثر مشاورة للرجال من رسول الله ».

وكذلك يكون الحازم ، مما يدل على حزمه اختباره للانصار فى غزوة بدر قبل ان يلق العدو ، وذلك انه لما خرج فى غزوة بدر يطلب عير قريش حتى نزل بواد يقال له « ذفران » (بفتح وكسر) أتاه الخبر عن قريش بأنهم خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم ، فعلم من هذا الخبر انه سيلقى حرباً ، وكان معه خمسة وثلثمائة رجل ، اربعة وستون من المهاجرين وباقيهم من الانصار ، فأخذ يفكر فى الامر أولاً لأنه ندب المسلمين الى الخروج قال لهم : هذه عير قريش فيها اموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها ولم يقل لهم اخرجوا لحرب قريش . ثانياً : « لأنه لما دعاهم الى الخروج لطلب العير لم يحتفل للامر ، ولم يهتم به ، بل قال من كان ظهره حاضراً فليركب معنا ، ولم ينتظر من كان ظهره غائباً عنه ، ولذا كان عدد الجيش قليلاً ، وكان يمكن ان يكون عددهم اكثر من ذلك ، ثالثاً : ان هـــذه الحرب التي سيلقاها ستكون أول حرب بينه وبين اعدائه من قريش ، فاذا كانت الدائرة فيها لاعدائه كانت الخيبة فيها كبرى ، والمصيبة عظمى ، رابعاً ان الانصار لما بايعوه عند العقبة كانوا

انما يعوه على الدفاع عنـــه ، لا على الهجوم على اعوانه ، فلذا صار يتخوف من الانصار لا يرون عليهم نصرته إلا اذا داهمه العدو من المدينة ، وليس الامر هنا كذلك ، بل ان محمداً هو الذي خرج يريد قريشاً .

* * *

كل هذه الامور دعت محمداً الى التفكير والتثبت فلذا اراد ان لا يقدم على هذه الحرب إلا بعد ان يستوثق من الانصار ، ويعلم انهم ناصروه على كل حال ، ولذلك اخبرهم الخبر ، فعقد مجلس حرب للاستشارة فقال لهم : ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فما تقولون ؟ أالعير احب اليكم من النفير ؟ فقالت طائفة منهم : العير احب الينا من لقاء العدو ، وفي رواية قالوا : هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنا خرجنا للعير وفي رواية قالوا : يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو ، فعندئذ تغير وجه رسول الله فلما رأى ذلك ابو بكر قام فقال واحسن ، ثم قام عمر فقال واحسن ، ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله امضي لما امرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ، بل نقول انا معك مقاتلون ما دامت منا عين تطرف فوالذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا الى برك الغماد (وهي مدينة بالحبشة) لجالدنا بالسيوف معك من دونه ، فأشرق وجه رسول الله ، وسرّ بذلك وقال خيراً ودعا له بخير .

ولما كان محمد يريد من هذه الاستشارة ان يعلم رأي الانصار لم يكتف بكلام هؤلاء الذين تكلموا بل عاد فقال : اشيروا عليّ فقام عمر

وقال : يا رسول الله انها قريش وعزها والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت والله ليقاتلنك فتأهب لذلك اهبته وأعد لذلك عدته . ثم عاد ثالثاً وقال : أشيروا علي ّ ايها الناس ففهمت الانصار انه يعنيهم ، وذلك لانهم عدد الناس اى اكثرهم عدداً ، فقام سعد بن معاذ سيد الاوس وقال : لعلك تريدنا معاشر الانصار يا رسول الله فقال اجل . قال سعد قد آمناك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة (زاد فى رواية) ولعلك يارسول الله تخشى ان تكون الانصار ترى عليها ان لا ينصروك إلا في ديارهم ، واني اقول عن الانصار واجيب عنهم فأظعن حيث شئت ، وصل حبل من من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما اخذت منا كان احب الينا مما تركت ، وما أمرت فيه من امر ، فتأمرنا نتبع لأمرك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنا عدونا ، وانا لصبر فى الحرب ، صدق اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله فنحن عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك .

فعند ذلك ظهر السرور فى وجه رسول الله ، وقال لهم سيروا وابشروا فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين فوالله لكأني الآن انظر الى مصارع القوم ، يريد بقوله احدى الطائفتين اما العير واما لقاء قريش ، فعلم القوم من قوله « فوالله لكأني انظر الى مصارع القوم » انهم ملاقون القتال ،

وان العير لا تحصل لهم ، ثم ارتحل رسول الله من ذفران حتى نزل قريباً من بدر .

ان الذى يخالف هذه الخطة « خطة الاستيثاق » التي جرى عليها محمد هنا لا يكون مخالفاً إلا للحزم فاذا اصابته خيبة فلا يلومن إلا نفسه .

* * *

ومن حزمه انه كان بعيد النظر بصيراً بعواقب الامور لا يقدم على أمر إلا بعد التثبت والتوثق فيه . تدلك على ذلك معاملته لرأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ، في غزوة بني المصطلق ، وذلك انهم بعد انقضاء حرب بني المصطلق بينما كان المسلمون نازلين على المريسيع وهو لهم ، اختصم اجير لعمر بن الخطاب كان يقود له فرسه يقال له جهجاه ، مع رجل من حلفاء الخزرج اسمه سنان بن فروة فضرب اجير عمر حليف الخزرج فسال الدم ، فنادى حليف الخزرج يا معشر الانصار . وفى رواية يا للخزرج ونادى أجير عمر يا معشر المهاجرين ، وفى رواية يا لكنانة يا لقريش ، فأقبل جمع من الجيشين ، وشهروا السلاح حتى كاد ان تكون فتنة عظيمة فخرج رسول الله فقال ما بال دعوى الجاهلية؟ فأخبر بالحال فقال دعوها فانها فتنة ، ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه فسكنت الفتنة ، وانطفت نائرة الحرب . وعند تخاصم الرجلين غضب عبد الله بن ابي سلول وكان عنده رهط من قومه الخزرج من المنافقين ، وكان عندهم زيد بن ارقم وهو غلام حديث السن فقال عبد الله بن أبي والله ما رأيت كاليوم مذلة وقد فعلوها ؟ نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما اعدنا وجلابيب قريش هؤلاء الا كما قال الاول : سمّن كلبك

يأكلك ، والله لقد ظننت اني سأموت قبل ان اسمعها تفاً يهتف بما سمعت ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل (يعني بالاعز نفسه) ، ثم اقبل على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، اما والله لو امسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى دار غيركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم انفسكم اغراضاً للمنايا فقتلتم دونه (يعني النبي) ، فأيتمتم اولادكم ، وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد .

فسمع ذلك زيد ابن ارقم ، فمشى به الى رسول الله فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، ونفر من المهاجرين والانصار ، وفى البخارى عن زيد بن ارقم قال فذكرت ذلك لعمي او لعمر فذكره للنبي فدعاني فحدثته . فكره رسول الله ذلك وتغير وجهه وقال له يا غلام لعلك غضبت عليه قال والله يارسول الله لقد سمعته منه ، قال لعله أخطأ سمعك . ولامه من حضر من الانصار ، وقالوا عمدت الى سيد قومك تقول عليه مالم يقل .

فلما رأى عمر ان رسول الله تغير وجهه استأذنه في ان يقتل ابن أبي والتمس منه ان يأمر غيره بقتله اذا لم يأذن له فى ذلك ، فعن عمر بن الخطاب قال : لما كان من امر ابن أبى ما كان جئت رسول الله وهو فى في شجرة عنده غليم اسود يقمر ظهره (اي يكبسه) فقال يا رسول الله كأنك تشتكي ظهرك فقال تقحمت بى الناقة الليلة أي القتني ، فقلت يا رسول الله ائذن لي ان اضرب عنق بن ابى ، أو مر محمد بن محمد بقتله ، فقال له رسول الله كيف يا عمر ؟ اذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل

اصحابه ، وفي رواية ، ان عمر قال له يا رسول الله انى كرهت ان يقتله مهاجري فأمر به انصارياً ، فقال رسول الله : ترعد له إذن أنف كثيرة بيثرب .

ثم اذن بالرحيل ، وكانت ساعة لم يكن رسول الله يرحل فيها لشدة الحر ، فارتحل الناس وسار رسول الله ، فجاءه اسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة ، وقال يا نبى الله : لقد رحلت فى ساعة مبكرة ما كنت تروح فى مثلها ، فقال له رسول الله : اما بلغك ما قال صاحبكم ؟ فقال أي صاحب يا رسول الله ، قال عبدالله بن ابى بن سلول قال وما قال ، قال زعم انه ان رجع الى المدينة اخرج الاعز منها الاذل ، قال فأنت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت هو والله الذليل وانت العزيز ثم قال يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ما بقيت عليهم الا خرزة واحدة عند يوشع اليهودي فانه ليرى انك استلبته ملكاً .

ثم ان عبدالله ولد عبدالله بن ابى بن سلول (كان اسمه الحباب فسماه رسول الله يوم موت أبيه بعبد الله) لما بلغه مقالة عمر من قتل ابيه جاء الى رسول الله فقال يا رسول الله انه قد بلغني انك تريد قتل عبدالله بن أبى (يعني والده) فما بلغك عنه قال إن كنت فاعلاً فمرنى ان احمل اليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل ابر بوالده مني ، وانى اخشى ان تأمر به غيري فيقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

ولما انتهى رسول الله الى وادي العقيق قريباً من المدينة تقدم عبدالله

بن عبدالله بن ابى وجعل يتصفح الركاب حتى مر ابوه فأناخ به ثم وطىء على يد راحلته فقال أبوه ما تريد يا لكع فقال والله لا تدخل حتى تقر انك الذليل ، وان رسول الله العزيز حتى يأذن لك رسول الله لتعلم أينا الاعز من الاذل أنت ورسول الله ، فصار يقول لانا اذل من الصبيان لانا اذل من النساء حتى جاء رسول الله وقال : خل عن أبيك فخلى عنه ، وانزل الله سورة المنافقين وفيها تصديق زيد بن ارقم بما اخبر به عن عبد الله بن ابى ، وصار قوم عبدالله ابن ابي عند نزول هذه السورة يعاتبونه ويعنفونه .

ولما رأى النبي بغض قومه له ومعاتبتهم أياه قال لعمر كيف ترى يا عمر أنى والله لو قتلته يوم قلت لارعدت له انوف لو امرتها اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر قد والله علمت لامر رسول الله اعظم بركة من امرى ولا حاجة الى ان نقول شيئاً بعد هذا ، فانه يتجلى لك من حزم محمد ما فيه من كمال .

المرحوم الرصافي مع لفيف من الادباء ورجال الصحافة
في استقبال طاغور فيلسوف الهند العظيم

من هم قريش

جماع الشيء هو ما يجمعه ويكون له اصلاً ، يقال الخمر جماع الاثم أي جامعة لاصنافه ، واصل تفرع انواعه ، وبالنظر الى هذا : إذا قلنا أن فهراً مثلاً هو جماع قريش ، كان معنى قولنا هذا ان قريشاً هم فهر ومن تناسل منه ، وان من كان فوق فهر من آبائه واولادهم ليسوا من قريش

اذا عرفت هذا قانا لك قد اختلفوا فى جماع قريش من هو ؟ على خمسة اقوال . . فقيل جماع قريش قصي ، وقيل فهر وقيل النظر وقيل الياس وقيل مضر .

فعلى القول الاول بأن قصياً هو جماع قريش لا يقال لاحد من فوقه قرشي ، ولم اقف على مايؤيد هذا القول .

قال صاحب السيرة الحلبية ونسب هذا القول لبعض الخوارج قال وهو قول باطل . لان الذين قالوه ارادوه ان يتوصلوا الى ان أبا بكر وعمر ليسا من قريش ، لانهما لم يلتقيا مع النبي إلا فيما بعد قصي لان أبا بكر يجتمع معه في مرة ، لأن تيم بن مرة بينه وبين أبي بكر خمسة آباء ، واما عمر فانه يجتمع مع النبي فى كعب ، وبين عمر وكعب سبعة آباء ، فتكون النتيجة من كون قصي جماع قريش ، هي ان أبا بكر وعمر ليسا من قريش فلا يكون لهما حق في الامامة العظمى ، التي هي الخلافة ، لان النبي قال الائمة من قريش ، وقال لقريش انتم اولى الناس بهذا الامر ما كنتم على الحق إلا ان تعدلوا عنه .

واما فهر فهو جماع قريش عند الاكثر قال الزبير بن بكار : أجمع النسابون من قريش وغيرهم ، على ان قريشاً انما تفرقت عن فهر : قيل فهر لقب له واسمه قريش ، والصحيح عكس ذلك ، أى ان أباه سماه فهراً وان قريش لقب له ، وانما لقبوه بذلك لأنه كان يقرش أى يفتش على خلة حاجة المحتاج فيسدها له بماله ، وكان بنوه يقرشون أهل الموسم عن حوائجهم ، فيرفدونهم ، فسموا بذلك قريشاً ، وعلى ان فهراً هو جماع قريش ، لا يكون قريش أبوه مالك ولا جده النضر ، فلا يقال لهما ، ولا لأحد من اولادهما قرشي .

والصحيح ان جماع قريش هو النضر بن كنانه ، فلا يقال لأحد من أولاده من فوقه قرشي وبكونه جماع قريش قال الفقهاء والنضر لقب له ، لقب به لنضارته وحسنه وجماله واسمه قيس ، والدليل على انه جماع قريش حديث محمد مع وفد كندة ، وذلك انه وفد عليه ستون ، وقيل ثمانون رجلاً من كندة فيهم الاشعث بن قيس ، وكانت لمحمد جدة من كندة ، وهي أم جده كلاب . فقال له الاشعث يا محمد نحن بنو آكل المرار وانت ابن آكل المرار (والمرار شجر يعرف عند العامة « بالمرير » اذا أكلته الأبل قلعت مشافرها فبدت اسنانها) يعني جدته ام كلاب ، فقال له محمد لا ، : نحن بنو النضر من كنانه لا نقفو أثمنا ، ولا ننتفي من آبائنا ، أى لا ننتسب الى الامهات ، ونترك النسب الى الآباء .

وقيل انما قال الاشعث للنبي (وانت ابن آكل المرار) لأن عمه العباس ابن عبد المطلب كان تاجراً ، وكان يسافر للتجارة ، وكان اذا دخل حياً من احياء العرب فسألوه من أنت قال : انا ابن آكل المرار يعظم بذلك

عندهم ، لأن كندة كانوا ملوكاً ، فلقول العباس هذا إعتقدت كندة ان قريشاً منهم . فلذا قال الاشعث تلك المقالة للنبي .

ويؤيد ذلك ما فى سيرة ابن هشام من أن الاشعث لما قال لمحمد تلك المقالة تبسم رسول الله وقال ناسبوا بهذه النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث ، وكان العباس وربيعة رجلين تاجرين وكانا اذا شاعا في بعض العرب فسئلا ممن هما ؟. قالا نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك ، وذلك ان كندة كانوا ملوكاً ثم قال لهم (أى رسول الله) لا . بل نحن بنو النضر من كنانة لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا .

هذا وانا ارى ان قول محمد لهم «لا نقفو أمنا» يؤيد الرواية الاولى أى ان الاشعث انما قال لمحمد أنت ابن آكل المرار لا لقول العباس هذا بل لأن لمحمد جدة من كندة ، ولا محل لقوله « لا نقفو أمنا » .

ومما يؤيد ان النضر هو جماع قريش ما جاء عن واثلة بن الاسقع قال : سمعت رسول الله يقول : ان الله اصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنو هاشم ، واصطفاني من بني هاشم ، فهذا الحديث والذى قبله يدلان بصراحة على ان النضر هو جماع قريش ، فالنضر واولاده ومن تناسل منهم هم الذين يقال لهم قريش ، إذ لا يجوز أن يعرف احد نسب محمد اكثر مما يعرفه هو .

تنبيه

بالرغم من الجهود التي بذلت فى تصحيح هذه المجموعة فقد حدثت فى بعض الكلمات أخطاء ولكنها بسيطة وظاهرة لم نر حاجة الى ادخالها فى جدول خاص للخطأ والصواب فانها لا تخفى على القارىء الكريم

892.74:R94A:c.1
الرصافي، معروف
آراء الرصافي في السياسة والدين وال
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039182

892.78
R949aA
c.1